مقامة الرياحين للإمام السيوطى
وتمام البناء القصصى
مقاربة تأصيلية

إعداد
الدكتور / ياسر السيد عبد العال البنَّا
مدرس الأدب والنقد فى الكلية

المقدمة

لانغض من قيمة فن العربية الأول : " الشعر " ، وأهمية الدراسات النقدية التى تتابع حركته حين نقرر أن الحاجة أصبحت ماسة إلى الاهتمام بفنون الإبداع النثرى كالقصة والمسرحية ، لما لهذه الفنون من تأثير على المتلقين ، ولما لأجهزة الإعلام وشبكات التواصل – فى العصر الحاضر – من اهتمام ملحوظ بما تمنحه هذه الفنون من ساعات البث التى قد تصل إلى اليوم كله ، فلا تكاد تترك وقتاً للمتابع ينشغل بغيرها.

وعلى ذلك " نحن بحاجة إلى توظيف فن القصة لنشر القيم والفضائل التى تسمو بالإنسان ، وتقيم علاقاته المناسبة بينه وبين أخيه الإنسان وعلاقتهما بالكون والحياة ، إنها العلاقة التى ينظمها الإسلام وفق تصوره لحركة الكون والحياة على امتدادها فى الزمان والمكان .... "[1] .

وتأسيساً على ذلك تتوجه هذه الدراسة نحو تأصيل فن القصة فى الأدب العربى ، لا سيَّما وأن بعض النقاد ينكر وجود الفن القصصى فى الأدب العربى القديم بزعم أنَّ الآثار القديمة للقصة العربية لا يمكن تقديمها من خلال مقاييس وعناصر بناء القصة الحديثة .

ويقدم هؤلاء النقَّاد القصة العربية على أنها مدينة فى نشأتها لفن القصة فى الآداب الغربية .

وبرفع النظر عن شطط هذا الزعم وخطأ إخضاع الآثار القصصية القديمة لمقاييس بناء القصة الحديثة فإن العرب قد عرفوا فن القصة فى عصور قديمة ، وتركوا لنا آثاراً قصصية تشهد لهم بالريادة حتى حين نساير – جدلاً – هؤلاء النقاد فى إخضاع هذه الآثار القصصية القديمة لمقاييس وأطر فنية حديثة .

---

(١) " اللغة وتقنيات البناء الفني " – د. كمال سعد خليفة – ص١٠ – ط جامعة أم القرى – ١٤٣٠هـ .

ومن هذه الآثار العديد من المقامات العربية التى كتبها أصحابها استعراضاً لما لديهم من مذخور لغوى وملكة بيانية وبديعية ، فكانت لوناً قصصياً يدور حول فكرة أو حادثة أو نوع من الصراع بين مجموعة من الشخصيات فى بيئة زمانية ومكانية ، يرصدها راوية فى أسلوب بديع وحبكة درامية متماسكة ، وليست أسس البناء القصصى الحديث إلا هذه العناصر التى اكتملت لدى كتَّاب العديد من المقامات العربية ربما دون أن يعمدوا لها .

ومن هذه الآثار " مقامة الرياحين " أو المقامة " الوردية " للإمام الحافظ جلال الدين السيوطى ، تلك المقامة التى صوَّرها صاحبها قصة درامية ، ومفاخرة خيالية طريفة على لسان النبات ، وبثَّ فيها كثيراً من المعارف العلمية ، والقيم الخلقية ، بأسلوب حوارى قصصى وقالب فنى ، تمت له عناصر بناء القصة الحديثة ، وهو ما تهدف هذه الدراسة إلى رصده والتأكيد عليه تدليلاً على الريادة العربية فى نشأة الفن القصصى .

وقد صَّدرت هذه الدراسة بتمهيد ، ومدخل ، ترجمت فى أولهما للإمام السيوطى ، حياته ، وثقافته ، وعرَّفت فى ثانيهما بفن المقامات العربية وأثرها فى الأدب ، لاسيما أثرها فى القصة القصيرة .

ثم جاءت الدراسة فى فصلين ضم كل منهما مبحثين ، عُنى الفصل الأول بعرض تحليلى لمقامة الرياحين ، وقراءة فنية لها ، ثم عُنى الفصل الثانى برصد عناصر بنائها القصصى ، وطريقة السرد ، وذلك بنظرة موضوعية فنية ، ترى القصة العربية فناً له أصوله ، وقواعده ، وأطواره ، وأثره فى آداب الآخرين وكذلك ترى أن كتَّاب القصة العربية الحديثة إنما يواصلون مسيرة أصيلة بدأها أجدادهم منذ قرون .

الباحث

تمهيد

جلال الدين السيوطى ... حياته وثقافته

ليس أولى وأصدق من ترجمة الإمام السيوطى لنفسه فى صدر كتابه " حسن المحاضرة"[١] ، فهى ترجمة ذاتية مكتملة تحدث فيها عن نسبه ، ونشأته ، ورحلة تعليمه وأساتذته ، ومؤلفاته ، وقدَّم لها بقوله :

" وإنما ذكرت ترجمتى فى هذا الكتاب اقتداءً بالمحدثين قبلى ، فقلَّ أن ألَّف أحد منهم تاريخاً إلا ذكر ترجمته فيه .

وممن وقع له ذلك الإمام عبد الغافر الفارسى[٢] فى " تاريخ نيسابور " ، وياقوت الحموى[٣] فى " معجم الأدباء " ، ولسان الدين بن الخطيب[٤] فى " تاريخ

---

(١) " حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة " – تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم – ط دار إحياء الكتب العربية – الأولى ١٣٨٧هـ / ١٩٨٧م .

(٢) عبد الغافر الفارسى (٤٥١ – ٥٢٩هـ = ١٠٥٩ – ١١٣٥م) : من علماء العربية والتاريخ والحديث ، فارسى الأصل ، من نيسابور – ارتحل إلى خوارزم وغزنة والهند ، وتوفى بنيسابور ، من كتبه " المفهم لشرح غريب مسلم " و " السياق " فى تاريخ نيسابور . (الأعلام خير الدين الزركلى ٣١/٤ – ط دار العلم للملايين – الخامسة عشرة مايو ٢٠٠٢م) .

(٣) ياقوت الحموى (٥٧٤ – ٦٢٦هـ = ١١٧٨ – ١٢٢٩م) : مؤرخ ثقة ، من أئمة الجغرافيين ، ومن العلماء باللغة والأدب . أصله من الروم . أسر من بلاده صغيراً ، وابتاعه ببغداد تاجر اسمه عسكر بن إبراهيم الحموى وإليه نسبته . من كتبه " معجم البلدان " و " إرشاد الأديب " ويعرف بمعجم الأدباء [وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – ابن خلكان – تحقيق : د/ إحسان عباس ٢١٠/٢ – ط دار صادر – بيروت ١٩٧٨م] .

(٤) لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ – ٧٧٦هـ = ١٣١٣ – ١٣٧٤م) : أديب ومؤرخ وطبيب ، ولد بلوشة قرب غرناطة ومات بفارس ، درس الطب والفلسفة والفقه واللغة والأدب ، ألفَّ حوالى (٦٠) كتاباً من أهمها : " الإحاطة فى تاريخ غرناطة " و " اللحمة البذرية فى الدولة النصرية " . [معجم الأدباء من العصر الجاهلى حتى سنة ٢٠٠٢م . كامل سلمان الجبورى ٤٥/٥ – ط دار الكتب العلمية – الأولى ٢٠٠٣م – ١٤٢٤هـ] .

غرناطة " ، والحافظ تقى الدين الفارسى[١] فى " تاريخ مكة " ، والحافظ بن حجر[٢] فى " قضاة مصر " ، وأبو شامة[٣] فى " الروضتين " .... "[٤] .

أولاً : اسمه ونسبه :

هو الحافظ جلال الدين ، وهذا لقبه ، وكنيته : أبو الفضل ، واسمه : عبد الرحمن بن الكمال بن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبى الصلاح أيوب بن ناصر الدين بن محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيرى الأسيوطى الشافعى[٥] .

ثانياً : مولده وأسرته :

كان مولد السيوطى بالقاهرة بعد مغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة من الهجرة ، لأسرة قدمت إلى مصر واستقرت فى أسيوط – فى عهد دولة بنى أيوب – بعد أن كانت تعيش فى حى " الخضيرية " ببغداد .

---

(١) تقى الدين الفارسى (٧٧٥ – ٨٣٢هـ = ١٣٧٣ – ١٤٢٩م) محمد بن أحمد بن على المكى الحسنى ، مؤرخ ، عالم بالأصول ، حافظ للحديث ، أصله من فاس ، ومولده ووفاته بمكة ، من كتبه " العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين " ، و " شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام " (الأعلام ٣٣١/٥) .

(٢) الحافظ بن حجر العسقلانى (٧٧٣ – ٨٥٢هـ / ١٣٧٢ – ١٤٤٩م) : من أئمة العلم والتاريخ . أصله من عسقلان " بفلسطين " ومولده ووفاته بالقاهرة – ولع بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث ، وعلت له شهرة فقصده الناس للأخذ عنه وأصبح حافظ الإسلام فى عصره ، أما تصانيفه فكثيرة جليلة ، منها " الدرر الكامنة فى أعيان الفئة الثامنة " ، و " لسان الميزان " (معجم الأدباء من العصر الجاهلى حتى سنة ٢٠٠٢م – كامل سلمان الجبورى ٢٢١/١) .

(٣) أبو شامة المقدسى (٥٩٩ – ٦٦٥هـ = ١٢٠٢ – ١٢٦٧م) : مؤرخ ، ومحدث ، وباحث – أصله من القدس ، ومولده فى دمشق ، وبها نشأته ووفاته ، من كتبه " الروضتين فى أخبار الدولتين : الصلاحية والنورية ، و " ذيل الروضتين " ، وكتابان فى تاريخ دمشق " (الأعلام ٢٩٩/٣) .

(٤) " تاريخ الخلفاء " – جلال الدين السيوطى – تحقيق : حمدى الدمرداش– ص ٢٩ – ط مكتبة نزار الباز – الأولى ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م .

(٥) ينظر : " حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة " – جلال الدين السيوطى ٣٣٦/١ .

ومما جاء فى ترجمته لنفسه عن أسرته أنَّ جده الأعلى همام الدين كان من أهل الحقيقة ومن مشايخ الطريق " ومَن دونه كانوا من أهل الوجاهة والرياسة ، ومنهم من ولى الحكم ببلده ، ومنهم من ولى الحسبة بها ، ومنهم من كان تاجراً فى صحبه الأمير شيخون[١] ، وبنى مدرسة بأسيوط ، ووقف عليها أوقافاً ..."[٢] .

أمَّا والده فيحكى الإمام السيوطى أنه لا يعرف من أسرته مَن خدم العلم حق الخدمة إلاه ، حيث كان قاضياً ثم تولى تدريس الفقه والخطابة فى مسجد أحمد بن طولون بعد أن ترك أسيوط إلى القاهرة ، وكان منزله على ضفاف النيل فى جزيرة روضة المقياس وهو المنزل الذى تربى فيه الإمام[٣] .

ثالثاً : ثقافته وأساتذته :

حبا الله الإمام السيوطى بحافظة قوية وعقل ألمعى ، وسرعة فهم واستيعاب ، ومن ثم حفظ القرآن الكريم قبل بلوغ الثامنة ، ثم حفظ " العمدة " ، ومنهاج الفقه والأصول ، وألفية ابن مالك ، ثم توجه إلى العلوم ينهل منها ، وتلقى العلم على كثير من شيوخ عصره ، ذكر بعضهم فى قوله : " أخذت الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ،وأخذت الفرائض عن شيخ زمانه العلامة "شهاب الدين الشارمساحى"[٤]

---

(١) الأمير شيخون : هو الأمير سيف الدين شيخو (أو شيخون) العمرى الناصرى أحد أمراء السلطان الناصر حسن ، وكان شيخون من أمراء المشورة لدى السلطان ثم تولى نيابة دمشق ثم قبض عليه وسجن بالإسكندرية ، ثم عاد إلى السلطة فى عهد السلطان صالح وزاد نفوذه وسلطانه وقد مات شيخون عليلاً بضربة سيف غادرة سنة ٧٥٨هـ - ١٣٥٧م . (ينظر : شبكة المعلومات الدولية (الأنترنت) موقع : www. Almasalik.com)

(٢) " حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة " جلال الدين السيوطى ٣٣٨/١ .

(٣) ينظر : " جلال الدين السيوطى وفن المقامات " - د/ السيد على حسن - ص١٠ - ط مركز كتاب كلية الآداب بسوهاج .

(٤) - شهاب الدين الشارمساحى : يوسف بن محمد الشارمساحى ثم القاهرى الأزهرى الشافعى ، ولد تقريباً سنة أربع وثلاثين وثمانمائة بشارمساح ، ونشأ بها، فحفظ القرآن والشاطبيتين وألفية الحديث والنحو والعمدة والأذكار للنووى والحاوى والمنهاج . (... الضوء اللامع لأهل القرن التاسع " - شمس الدين السخاوى ٣٣٠/١٠ - ط دار الجيل - بيروت دون تاريخ) .

ولزمت فى الحديث والعربية شيخنا الإمام " تقى الدين الشبلى الحنفى "[١] ، ولزمت شيخنا العلامة أشتاذ الوجود " محى الدين الكافيجى "[٢] أربع عشرة سنة فأخذت عنه الفنون من التفسير والأصول والعربية والمعانى ، وكتب لى إجازة عظيمة ، وحضرت عند الشيخ " سيف الدين الحنفى "[٣] دروساً عديدة فى الكشاف والتوضيح وحاشيته عليه وتلخيص المفتاح ... وأما مشايخى فى الرواية سماعاً وإجازة فكثير ، أوردتهم فى معجم جمعتهم فيه ، وعدتهم نحو مائة وخمسين ... "[٤] .

ويحكى الإمام أنه لمَّا حجَّ بيت الله الحرام شرب ماء زمزم بنية أن يصل فى الفقه مرتبة الشيخ سراج الدين البلقينى[٥] ، وفى الحديث إلى رتبة الحافظ بن حجر ، فلعل الله عز وجل أجابه لما هو أكثر ، يقول : " رزقت التبحر فى سبعة علوم :

---

(١) تقى الدين الشبلى الحنفى (٧١٢ – ٧٦٩هـ = ١٣١٢ – ١٣٦٧م) : محمد بن عبد الله الشبلى الدمشقى – من فقهاء الحنفية ، وكان أبوه " قيمّ الشبلية " فيها . ورحل إلى القاهرة ، وولى قضاء طرابلس الشام واستمر فى القضاء إلى أن توفى بها ، من كتبه " محاسن الوسائل إلى معرفة الأوائل " و " تثقيف الألسنة بتعريف الأزمنة . (الأعلام ٦/٢٣٤) .

(٢) الكافيجى (لقب بذلك لكثرة تدريسه الكافية) : هو محيى الدين محمد بن سليمان الحنفى ، ولد كما ذكر السيوطى قبل سنة ٨٠٠هـ تقريباً ، ومات سنة ٨٧٩هـ ، ويصفه السيوطى أنه أستاذ الدنيا فى المعقولات . (حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ١/٥٤٩) .

(٣) سيف الدين الحنفى : العلاّمة ، الورع ، الزاهد . ولد سنة ٨٠٠هـ ، وبرع فى الفقه والأصول والنحو ، محقق الديار المصرية وولى التدريس بأماكن منها ، ومات فى ذى القعدة سنة ٨٨١هـ . (حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ١/٦٥٩) .

(٤) " حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة " – جلال الدين السيوطى ١/٣٣٩ .

(٥) سراج الدين البلقينى : هو عمر بن رسلان السراج أبو حفص الكنانى البلقينى ، ثم القاهرى الشافعى ، مجتهد حافظ للحديث ، من العلماء بالدين ، ولد فى شعبان سنة أربع وعشرين وسبعمائة ، وتعلم بالقاهرة ، وولى قضاء الشام ، وتوفى بالقاهرة فى ذى القعدة سنة خمس وثمانمائة من كتبه " التدريب " فى فقه الشافعية ، و " تصحيح المنهاج " . (ينظر : " الضوء اللامع لأهل القرن التاسع " – شمس الدين السخاوى – ج ٦ ص ٨٥ : ٩٠) .

التفسير ، والحديث والفقه ، والنحو ، والمعانى ، والبيان ، والبديع على طريقة العرب البلغاء ، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة .... "[١] .

وعلى الرغم من اعتداد الإمام بنفسه وعلمه واعتقاده أن أحداً من أشياخه لم يصل إلى ما وصل إليه فى ستة علوم إلا أنه ينصف نفسه ويذكر استغلاق علم الحساب عليه ، وكراهته لعلم المنطق ، وتفوق أشياخه عليه فى علم الفقه ، بقول : " أما الفقه فشيخى فيه أوسع نظراً ، وأطول باعاً .... وأما علم الحساب : فهو أعسر شئ علىّ وأبعده عن ذهنى ، وإذا نظرت إلى مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلاً أحمله ... وقد كنت فى مبادئ الطلب قرأت شيئاً فى المنطق ، ثم ألقى الله كراهته فى قلبى .... "[٢] .

رابعاً : رحلاته وأعماله :

فى سبيل العلم كان للإمام السيوطى رحلات كثيرة داخل مصر إلى الفيوم ، ودمياط ، والإسكندرية ، والمحلة الكبرى ، وخارج مصر إلى الشام والحجاز واليمن والمغرب ، وبلاد الهند ومالى وبلاد التكرور[٣] ، وحصل له بسبب هذه الرحلات معارف وبراءات وإجازات بالعلم والتدريس[٤] .

وقد عمل الإمام فى بادئ حياته العملية بتدريس الفقه فى المدرسة الشيخونية سنة ٨٧٢هـ ، وبذل المشورة فى المسائل الفقهية ، ثم تولى مشيخة الصوفية وانتقل إلى مشيخة " الخانقاه البيبرسية " وهى أكبر خوانق القاهرة وأوسعها أوقافاً ، ثم عزل

---

(١) " حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة " – جلال الدين السيوطى ٣٣٩/١ .

(٢) المرجع السابق ٣٣٨/١ .

(٣) بلاد التكرور : هذا الاسم علم على الإقليم الغربى من الجنوب السودانى وهذا الاسم شائع فى الحرمين ومصر والحبشة ، ولا يعرفه أهل هذه البلاد وإنما يتلقونه من الحجاج الذى يعود بالحرمين ومصر . (" إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور " – محمد بن عثمان بن [illegible] فودى – تحقيق : بهيجة الشاذلى – ص٤ – ط منشورات معهد الدراسات الإفريقية – الأولى ١٩٩٦م)

(٤) ينظر : " جلال الدين السيوطى وفن المقامات " – د/ السيد على حسن – ص ١١ .

السلطان محمد بن قايتباى عنها بعد أن تحزب عليه جماعة من مشايخ الصوفية كان الإمام قد حرمهم من وظائفهم وبعض الامتيازات التى كانوا يتحصلون عليها[١] .

ولم تطل حياته العملية إذ إنه لَما بلغ الأربعين من عمره تجرد للعبادة والاشتغال بالتأليف حتى وافته المنية فى الثامن عشر من جمادى الأولى سنة تسعمائة وإحدى عشرة[٢] ، وكان – يرحمه الله قد أعرض عن الدنيا وأهلها ، وأقام فى روضة المقياس قرابة العشرين عام الأخيرة من عمره وهى الحقبة التى جاءت فيها أكثر مؤلفاته ، ونضج علمه ، وتمت له أدوات الاجتهاد ، يقول : " وقد كملت عندى آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى ، ولو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها العقلية والقياسية ومداركها ونقوضها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله ، لا بحولى ولا بقوتى ، أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله علىّ لا فخراً ، وأى شئ فى الدنيا حتى يُطلب تحصيله بالفخر ! وقد أزف الرحيل ، وبدا الشيب ، وذهب أطيب العمر .... "[٣] .

خامساً : مؤلفاته :

يقول الإمام : " شرعت فى التصنيف فى سنة ست وستين ، وبلغت مؤلفاتى ثلاثمائة كتاب ، سوى ما رجعت عنه .... "[٤] ، وباعتبار تاريخ مولده يكون الإمام

---

(١) ويبدو أن تصادمات الإمام السيوطى لم تقتصر فقط على حياته العملية وإنما ذاعت معاركه العلمية مع الإمام السخاوى صاحب " الضوء اللامع " الذى اتهم فيه السيوطى أنه اختلس بعض كتاباته ، ثم جاء رد الإمام السيوطى بكتابه " الكاوى على تاريخ السخاوى . (ينظر : " جلال الدين السيوطى ، وفن المقامات " – هامش ص١٢) .

(٢) ذكر الدكتور السيد على حسن أن العلامة أحمد تيمور أكد فى دراسة أعدها عن قبر الإمام السيوطى أنه مدفون بالقاهرة بجوار خانقاه قوصون ، وقال بخطأ من يظن دفنه فى أسيوط .(ينظر : " جلال الدين السيوطى ، وفن المقامات " – هامش ص١٢) .

(٣) " حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة " – جلال الدين السيوطى ٣٣٨/١ .

(٤) – المرجع السابق ٣٣٩/١ .

قد بدأ التأليف وكملت لديه أدواته ، وعمره سبعة عشر عاما ، وكان – يرحمه الله – ظاهرة فى سرعة التأليف ، يقول تلميذه " الشمس الداودى "[١] : " عاينت الشيخ وقد كتب فى يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفاً وتحريراً ، وكان مع ذلك يعلى الحديث ويجيب عما يظن فيه التعارض بأجوبة حسنة .... "[٢] .

ولاشك أن هذه الهمة العالية كانت هى السبب الرئيس فى كثرة مؤلفاته التى بلغت أكثر من خمسائة مؤلف فى ألوان شتى من العلم والفن[٣] ، بين مؤلفات كُبرى فى مجلد أو مجلدات ، كـ " الإتقان " ، و " المزهر " ، و " جمع الجوامع " ، و " الجامع الكبير ، و " الجامع الصغير " ، و " بغية الوعاة " و " طبقات الحفاظ " و " تاريخ الخلفاء " ، و " الأشباه والنظائر " وغيرها ، ومؤلفات أخرى صغيرة ، كتلك الأجزاء والأبحاث التى تضمنها كتابه " الحاوى فى الفتاوى " .

وقد بدا واضحاً فى هذه المؤلفات تأثر الإمام السيوطى بحفظه للقرآن الكريم وأحاديث النبى – صلى الله عليه وسلم – ، أما أكثر هذه المؤلفات أدبيةً فهى مقاماته التى اخترت إحداها لتكون موضوعاً لهذه الدراسة لاسيما من حيث ما تم لها من عناصر البناء القصصى لتصح توطئة حقيقية ومحاولة جادة فى خلق القصة العربية .

---

(١) الشمس الداودى (٩٤٥هـ – ١٥٣٨م) : محمد بن على بن أحمد ، شمس الدين الداوودى المالكى ، شيخ أهل الحديث فى عصره ، مصرى من تلاميذ جلال الدين السيوطى . توفى بالقاهرة له كتب منها " طبقات المفسرين " و " ذيل طبقات الشافعية للسبكى " و " ترجمة الحافظ السيوطى " . (الأعلام ٢٩١/٦) .

(٢) " جلال الدين السيوطى وفن المقامات " – د/ السيد على حسن – ص١٥ .

(٣) ينظر : " دائرة المعارف الإسلامية " – إبراهيم ذكى خورشيد ، أحمد الشنتمناوى ، عبد الحميد يونس – ٢٧/١٣ – طبعة أفغانستان ١٩٣٦م .

مدخل

المقامات العربية وأثرها فى الأدب

أولاً : المفهوم والنشأة :

وردت كلمة " المقامة " فى المعاجم اللغوية بمعنى الإقامة أو الموضع[١] ، وقد مرَّ معناها اللغوى بأطوار عدة ، ففى العصر الجاهلى استعملت كلمة مقامة بمعنى مجلس القبيلة أو ناديها ، يقول لبيد[٢] :

عفت الديارُ محلُّها فمقامُهـا بمنىً تأبَّـدَ غولهـا فرجامُهـا

وقد يتجاوز معنى الكلمة المكان إلى من يتواجدون فيه فتعنى الجماعة التى يضمها المجلس أو النادى ، يقول زهير[٣] :

وفيهم مقاماتٌ حِسانٌ وجـوهُهم وأنديةٌ ينتابُها القولُ والفعـلُ

ثم تطور مفهوم الكلمة فى العصر الإسلامى ، وأصبحت تعنى المجلس الذى يقوم فيه شخص بين يدى الخليفة أو غيره ، ثم تطور معناها لتعنى المحاضرة سواء أكان من يقدمها قائماً أو قاعداً .

وعندما تقدمت الفنون الأدبية خلال العصر العباسي الثانى تعددت ألوان الأدب شعره ونثره ، واتجه الأدب إلى الإغراق فى الصنعة والمحسنات البديعية ، واتخذت المقامة مدلولاً أدبياً .

وقد توسع هذا المفهوم الأدبى فى القرن الرابع الهجرى متأثراً فى شكله ومضمونه بظروف العصر والمجتمع ، وتضمنت المقامة الشكوى والتسول – ما يعرف بالكدية[٤] – فى أسلوب فيه فن وتصنيع .

---

(١) " لسان العرب " محمد بن مكرم بن منظور ٤٩٦/١٢ – ط دار – بيروت دون تاريخ .

(٢) " ديوان لبيد بن ربيعة العامري " – ص١٦٣ – ط دار صادر بيروت – دون تاريخ .

(٣) " ديوان زهير بن أبي سلمى " – ص ٧٤ – ط دار الفكر – بيروت ١٩٩٥م .

(٤) دارت المقامات فى العصر العباسى حول موضوع " الكدية "، يقال : صفر فأكدى إذا وصل إلى كدية ، واستعير ذلك للطالب المخفق المقل ،قال تعالى" فَأَعْطَىَ قَلِيلاً وَأَكْدَى " ويراد بالكدية : التطلع إلى عطاء لا يحصل عليه طالبه كما يريد ، (ينظر : " مفردات ألفاظ القرآن " للأصفهانى تحقيق : صفوان عدنان داوودى – ص٧٠٥ – ط دار القلم – الرابعة – دمشق ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م) .

ثانياً : كُتَّابُها :

كان بديع الزمان الهمذانى هو أول من استخدم لفظ " المقامات " استخداماً يقصد به جنساً أدبياً جديداً زيد على الفنون الأدبية المتداولة فى ذلك الحين[١] ، وقد أصبحت المقامة عنده أقرب إلى قصة قصيرة بطلها نموذج إنسانى مكد لها راو ، وبطل وتقوم على حدث طريف ، أو مفارقة أدبية ، أو مسألة دينية ، أو مغامرة تحمل فى داخلها لوناً من ألوان النقد أو الثورة أو السخرية ، وُضعت فى إطار من الصنعة اللفظية والبلاغية[٢] .

---

(١) هذا على أصح وأذْيَع الآراء ، وأيّد ذلك كثيرون فى مقدمتهم القلقشندى فى كتابه " صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء " يقول : " واعلم أن أول من فتح باب عمل المقامات علاّمة الدهر وإمام الأدب : البديع الهمذانى " ، كما أيد هذا الرأى أيضاً : النقد الحديث ، حيث يرى الدكتور محمد غنيمى هلال ، والدكتور شوقى ضيف ، وغيرهما : أنّ بديع الزمان هو أول من اخترع المقامات وأعطاها هذا الاسم فى العربية ، ومهّد الطريق لظهور هذا الفن . (ينظر : " صبح الأعشى " – القلقشندى ١٢٤/١٤ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – دون تاريخ ، و " المقامة " للدكتور شوقى ضيف ص ٥ – ط دار المعارف – الثالثة – ١٩٧٣م .

غير أن ثمة من يرى أن بديع الزمان ليس هو مبتكر فن المقامات ، وفى مقدمتهم : الحصرى صاحب " زهر الآداب " ، ويرى أن مبتكر هذا الفن هو ابن دريد اللغوى (ت ٣٢١هـ) ، وأن البديع هو من حذا حذوه ، وقد وافق الحصرى فى ذلك ابن عبد ربه صاحب " العقد الفريد " غير أنه لم يحدد سابقى البديع .

ومن النقد الحديث : جرجى زيدان ، ويرى أن أحمد بن فارس الرازى الإمام اللغوى (ت ٣٩٠هـ) صاحب كتاب " المجمل فى اللغة " هو رائد هذا الفن بعدة رسائل كتبها واحتذاها البديع والحريرى – (ينظر : الآداب العربية فى العصر العباسى الثانى – لجرجى زيدان ص ٦٦ – ط دار المعارف ١٩٧٩م).

ولعل ما يُستفاد من ذلك : أن المقدمات الأولى لفن المقامة العربية جاءت قبل بديع الزمان ، لكنها فى عهده بدت فناً ناضجاً وأخذت شكلاً قصصياً غدا أصلاً عربياً لفن القصة القصيرة .

(٢) ينظر : " فن المقامات بين المشرق والمغرب – د. يوسف نور عوض – ص٨ – ط دار القلم بيروت – الأولى ١٩٧٩م .

وأكثر النقاد على أن المقامات فى العصر العباسى جاءت على هذا النحو فى موضوعها نتيجة لاضطراب الأحوال السياسية والاجتماعية فى البلاد الإسلامية ، وقد واكب هذا الاضطراب الاجتماعى اضطراب آخر فى الحياة الأدبية ، ومحاولة كل أديب إظهار التفوق على الآخرين فى مجال الصنعة والإغراق فى المحسنات البديعية[١] .

وقد أشار الحريرى فى مقدمة مقاماته إلى هذا الاضطراب فى الحياة الأدبية بقوله : " فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب التى ركدت فى هذا العصر ريحه ، وخبت مصابيحه ذكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان ، وعلاَّمة همذان رحمه الله .... "[٢] .

ويعدّ أكثر اقتراب المقامات العربية من فن القصة أيضاً جاء على يد مبتدعها حيث ألَّف اثنتين وخمسين مقامة ، اتخذ لها راوية هو " عيسى بن هشام " ، وبطلاً هو " أبو الفتح الاسكندرى " ، وكتبها فى أثناء نزوله بنيسابور ، وجاء أنه كان يختم بها دروسه على تلاميذه[٣] .

وبعد بديع الزمان يأتى " عبد الله بن ناقيا " بتسع مقامات بطلها شخصية " اليشكرى " ، ورواتها متعددون ، ثم يأتى بعدهما خمسة كُتَّاب لكل منهم خمسون مقامة[٤] ، وهم – على الترتيب : أبو القاسم الحريرى[٥] ، والإمام الزمخشرى[٦] ،

---

(١) ينظر :" تاريخ الأدب العباسى – قضايا وفنون " – د. الريدى عبد الحفيظ – ص٢٧٨ ط مركز كتاب كلية البنات الأزهرية بأسيوط – ٢٠١٢م .

(٢) " المقامات الأدبية للحريرى " – ط البابى الحلبى بمصر – ١٩٥٠م .

(٣) ينظر : " المقامة " – د. شوقى ضيف ص٥٠ ، وينظر : " جلال الدين السيوطى وفن المقامات " ص٢١ – " مرجع سابق ".

(٤) ينظر : المرجع السابق ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٥) الحريرى (٤٤٦ – ٥١٦هـ / ١٠٥٤ – ١١٢٢م) : القاسم بن على أبو محمد الحريرى البصرى ، الأديب الكبير ، صاحب " المقامات الحريرية " ، مولده بالمشان (بليدة فوق البصرة) ووفاته بالبصرة – ونسبته إلى عمل الحرير أو بيعه ، وكان ينتسب إلى ربيعة الفرس . (معجم الأدباء من العصر الجاهلى حتى سنة ٢٠٠٢م – كامل سلمان الجبورى ٤/٤٨٠) .

(٦) الزمخشرى : أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمى الزمخشرى ، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأداب ، ولد فى زمخشر (من قرى خوارزم) عام ٤٦٧هـ – ١٠٧٥م ، وتنقل =

والسرقسطي[١] ، ، وابن الجوزى[٢] ، وابن الجزرى[٣] ، وقد سار أولهم على نهج بديع الزمان منهجاً وموضوعاً ، وجعل لمقاماته راوية هو " الحارث بن همام " ، وبطلاً هو " أبو زيد السروجى " .

أما ثانيهم : فابتعد بمقاماته عن فن القصة قليلاً حين لم يجعل لها راوية ولا بطلاً ، وتوجه بموضوعها نحو الوعظ والإرشاد وأحوال الآخرة .

ثم الثالث : وقد سَمَّى مقاماته " اللزومية " ، لكنها لم تبلغ منزلة مقامات البديع أو شهرتها .

أما الرابع : فقد كتبها فى مقامات شتى ، وأعاد لها الشكل القصصى من حيث الراوية والبطل ، وكذلك فعل خامسهم ليتمّ للتراث العربى على يد الكُتَّاب الخمسة

= فى البلدان ، ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) فتوفى فيها عام ٥٣٨هـ - ١١٤٤م ، من أشهر كتبه " الكشاف " ، و " أساس البلاغة " و " المقامات " ، (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - ابن خلكان - تحقيق : د/ إحسان عباس ٨١/٢) .

(١) السرقسطى (٥٣٨هـ = ١١٤٣م) : محمد بن يوسف السرقسطى الأندلسي ، المعروف بابن الاشتركوني ، وزير من الكتاب الأدباء ، اشتهر بالإنشاء ، وعارض الحريرى فى مقاماته ، بخمسين مقامة سماها "المقامات اللزومية "، مولده بسرقسطة ووفاته بقرطبة .(الأعلام ١٤٩/٧) .

(٢) ابن الجوزى : هو أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن القرشى التيمى البكرى ، فقيه حنبلى محدث ومؤرخ ومتكلم (٥١٠هـ / ١١١٦م - ٥٩٧هـ - ١٢٠١م) ولد وتوفى فى بغداد ، حظى بشهرة واسعة ، وبرز فى كثير من العلوم والفنون ، من أشهر مصنفاته " زاد المسير فى علم التفسير و"نواسخ القرآن" (شبكة المعلومات الدولية(الانترنت)،موقع https://ar.wikipedia.org

(٣) ابن الجزرى : محمد بن محمد بن محمد العمرى الدمشقى ثم الشيرازى الشافعى ، ويعرف بابن الجزرى نسبة لجزيرة ابن عمر قريب الموصل ، من حفاظ الحديث وشيخ القراء فى زمانه ، ولد فى دمشق فى رمضان سنة إحدى وخمسين وسبعمائة ونشأ بها ، ورحل إلى مصر مراراً ، ودخل بلاد الروم ، ثم رحل إلى شيراز فولى قضاءها ومات فيها فى ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين ، من كتبه " النشر فى القراءات العشر " و " التمهيد فى علم التجويد " . (ينظر : " الضوء اللامع لأهل القرن التاسع " ٢٥٥/٩ : ٢٥٩) .

مائتان وخمسون مقامة تحققت ، أو تكاد – فى كثير منها عناصر البنـــاء القصـــصى وآليات الإبداع.

وبعد هؤلاء جميعاً يأتى ابن الوردى[١] بمقامات أشبه بالمقالات الأدبية الـــتى تعالج مسائل فكرية أو قضايا عامة ، وقد خلا موضوعها من عنصر " الكدية "[٢] .

وفى نهاية القرن التاسع الهجرى وبداية القرن العاشر يـــأتى جـــلال الـــدين السيوطى بأكثر من أربعين مقامة بين ما ورد متفرق ومجموع ومخطوط ومطبوع[٣] ،

---

(١) ابن الوردى (٦٩١ – ٧٤٩هـ / ١٢٩٢ – ١٣٤٩م) : عمر بن مظفر زين الدين ابن الوردى المعرى الحلبى الشافعى ، فقيه ، شاعر ، أديب ، مؤرخ ، باحث فى علم النبات ، ولد فى معرة النعمان سورية ، وولى قضاء منبج ، وبها توفى بالطاعون ، له مؤلفات ومنظومات كثيرة منها " تتمة المختصر " و " مقامات بن الوردى " (معجم الأدباء من العصر الجاهلى حتى سنة ٢٠٠٢م ٣٦٦/٤) .

(٢) ينظر : " جلال الدين السيوطى وفن المقامات " – ص ٢٤ – مرجع سابق .

(٣) جمعها الدكتور السيد على حسن فى كتابه " جلال الدين السيوطى وفن المقامات " ، وأفاد أن سبعاً وثلاثين مقامة منها وردت فى مخطوطة قديمة بمكتبة الأزهر وردت لناسخ مجهول برقم ١٣٠ مجاميع ٢٤٩١ ، بين ثلاثين مقامة وردت مفردة هى " ساجعة الحرم " فى وصف مكة والمدينة ، ٢ – " المقامة السندسية " فى والدى النبى – صلى الله عليه وسلم – ٣ – " المقامة اللازوردية " فى موت الأولاد – ٤ – " النجع فى الإجابة إلى الصلح – ٥ – المقامة المستنصرية – ٦ – الكاوى فى تاريخ السخاوى – ٧ – " المقامة الذهبية " فى الحمّى – ٨ – " بلبل الروضة " فى وصف روضة مصر – ٩ – " مقامة الرياحين " وتسمى المقامة الوردية – ١٠ – مقامة الطيب وتسمى المقامة المسكية – ١١ – مقامة النساء وتسمى " رشف الزلال من السحر الحلال – ١٢ – " المقامة التفاحية " – ١٣ – المقامة الزمردية – ١٤ – المقامة الفستقية – ١٥ – المقامة الياقوتية – ١٦ – المقامة اللؤلؤية – ١٧ – المقامة البحرية – ١٨ – مقامة الذرة ١٩ – الفتاش على القشاش – ٢٠ – الاستنصار بالواحد القهار – ٢١ – قمع المعارض فى نصرة ابن الفارض – ٢٢ – الدوران الفلكى على ابن الكركى – ٢٣ – الهندكى فى عتق ابن الكركى – ٢٤ – طرز العمامة فى التفرقة بين المقامة والقمامة – ٢٥ – الجواب الزكى عن مقامة ابن الكركى – ٢٦ – الفارق بين المصنف والسارق – – ٢٧ – المقامة الكلاجية فى الأسئلة الناجية – ٢٨ – صاحب سيف على صاحب حيف – ٢٩ – الفتح القريب – ٣٠ – مقامة اللفظ الجوهرى فى رد ضباط الجوجرى .

وسبع مقامات وردت مجموعة فى المخطوطة نفسها ومقامتان ذكرهما حاجى خليفة فى كتاب " كشف الظنون " وهما مقامة " أولى الألباب " ، ومقامة فى مسألة الحلف ، وتمام الأربعين =

جاءت فى شكل مقالات ، ومفاخرات ، ومناظرات دينية وعلمية طريفة أو جادة ، ومن حيث الفن تحقق فى كثير منها الشكل القصصى ، إلا أنَّ بعض هذه المقامات اكتملت فيها عناصر بناء القصة الحديثة ، ومنها المقامة " الوردية " ، أو مقامة " الرياحين " للإمام السيوطى ، والتى تضطلع هذه الدراسة بتحليلها .

ثالثاً : أثرها على الأدب :

غير خفى ما أسهمه ظهور فن المقامات للأدب العربى غناءً ورواء فى ألفاظه وأساليبه ومعانيه ، وما قدمته المقامات العربية للأدب من نماذج أدبية جميلة للأدباء والمتأدبين يحتذوها ويقتفوا أثرها .

وكذلك ما أضافته المقامات العربية من التأصيل لفن جديد من فنون النثر العربى هو القصة القصيرة ، وفن آخر يشبه المقامة يتمثل فى : " مقالات قصار تعتمد على الإيجاز ، تقصر الوعظ والحكمة وتسدى النصح والخبرة وثمرة التجربة إلى القراء ، وليس فيها حوار ، وليس لها راوية أو بطل ، وهذا الفن نجده فى مثل كُتُب " أطواق الذهب " لعبد المؤمن الأصفهانى " و " أطياف الذهب " للزمخشرى ، و " أسواق الذهب " لأحمد شوقى ... "[1] .

أما كُتب المقامات وشروحها والدراسات التى وضعت لها فقد عُدَّت ثروة للغة العربية وآدابها ، ومن ثَم أسهمت فى بناء النهضة الأدبية الحديثة فى مصر والعالم العربى .

غير أن النصفة تقتضى القول : إن للمقامات بعيداً عن هذه الآثار آثاراً أخرى تناقضها ، فقد " كانت الصناعة البديعية اللفظية المتكلفة السائدة فيها ذات أثر

= بمقامة عثر عليها ضمن مقامات ابن الجزرى (مخطوطة بدار الكتب برقم ١٤٢٩ أدب ، ويضاف إلى ذلك أيضاً أكثر من اثنى عشر مقامة للسيوطى مطبوعة ومتداولة ، كما ذكر الدكتور السيد على حسن أنه وقف على غير ذلك من المخطوطات لمقامات السيوطى إلا أنها لا تضيف جديداً لما ذُكِر .

(١)" الآداب العربية فى العصر العباسى الثانى " – ص ٧١ ، ٧٢ – " مرجع سابق " .

على الأدب وأسلوبه وعلى ملكات المتأدبين ، وأشـــاعت فى الأدب فـــن الألغـــاز والأحاجى ، وأبعدت الشباب خلال أوائل عصر النهضة عن الأصول الأدبية الأولى التى تمتلىء ثمارها طبعاً وملكة وموهبة ... "[1] ، فالمقامة وإن خطت خطوات واسعة نحو الفن إلا أنها من حيث الصياغة والأسلوب جاءت تمثل عصر أصحابها .

(١) المرجع السابق والصفحة نفسها .

الفصل الأول

مقامة الرياحين .. تحليل وفن

المبحث الأول

مقامة الرياحين[١] .. عرض وتحليل

عبر فن أصيل من فنون الأدب هو فن " المفاخرات والمناظرات ، وبأسلوب قصصى بارع جاءت مقامة الإمام السيوطى المسماة " الوردية " أو مقامة " الرياحين " .

وقد أجراها مفاخرة طريفة بين تسع أزهار مجتمعة هى : الورد ، والنرجس ، والياسمين ، والبان ، والنسرين ، والبنفسج ، والنيلوفر ، والآس ، والريحان " ، مصوراً كل زهرة تزهو بنفسها وتفخر على أختها ، وتعدد أدلة سبقها وأسباب تفردها فى محاولة منها لتفوز بعرش مملكة الزهور فى الحديقة التى تَواكَبَ مرور راوى المقامة عليها قبل أن تبدأ المفاخرة .

واختار أن يبدأ الإمامُ المفاخرة – على لسان راويها – بزهر " الورد " الذى هجم بشوكته ، ونجَمَ من بين الرياحين معجباً بإشراق صورته ، وقال[٢] : " باسم الله المعين ، وبه نستعين ... أنا الورد ملك الرياحين ، والواردُ منعشاً للأرواح ومتاعاً لها إلى حين ، ونديم الخلفاء والسلاطين ، والمرفوع أَبَدَاً على الأَسِرَّةِ . لا أجلسُ على طين ، والظاهرُ لونى الأحمر على أزهار البساتين ... "[٣] .

---

(١) تم نظمها فى الثالث من شعبان عام ٩٩٧هـ [ينظر : " مقامات السيوطى " – تحقيق سمير الدروبى – ص٤٧٨ – ط : مؤسسة الرسالة – الأولى – ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م]

(٢) النص من " مقامات السُيوطى " مخطوطة قديمة بمكتبة الأزهر – لناسخ مجهول برقم ١٣٠ مجاميع ، وضمت سبعاً وثلاثين مقامة ، مع مراجعته على " مقامات السيوطى " نسخة محققة للدكتور سمير الدروبى – ص ٤٣١ ، " مرجع سابق " .

(٣) جاء بعد هذا النص قوله : " والأشرف من كل ريحان فخراً لأنى خلقت من عرق المصطفى وجبريل والبراق ليلة الإسراء " فى إشارة لمعنى حديث موضوع أورده ابن الجوزى فى " الموضوعات "– جـ٣ – ص٦٢ – ط المكتبة السلفية بالمدينة المنورة – الأولى ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م .

يبدو أنَّ الورد يشعر بجلل الخطب ، وحرص الأقران مثله على الأمر ، فهو يبدأ حجاجه باسم الله ، وبه يستعين ، ثم يذكر كل ما من شأنه يثبت له الريادة علَّة يكون بحجته ألْحن من أصحابه .

ويمضى السيوطى بلسان الورد يذكر أسباب الفخر ، ويعلل أدلة التفـوق والسبق علها تكفل له بلوغ العرش ، يقول : " لأنى صاحب الدولة ، والعزيز عنـد الناس ، والمودود بين الجلاَّس للإيناس والعادل فى المِزاج والصالح للعلاج ... أُسكِّنُ حرارة الصفراء ، وأقوى المِعَد ، أفتح من الكبد السُّدَد ، وأنفع الأحشاء ، أنا ومائى ودُهنى كيف شاء ... " .

وحُق للورد أن يسهب فى ذكر فوائده الطبية ؛ فليس أجلّ – حين يكـون الفخار – من الإسهام فى برء الأسقام وتخفيف الآلام ، ثم هو ينتقل مما اشتهر به مـن النفع إلى مبعث آخر للزهو والفخر ، يقول : " وكفى رفعة على الأقران : أنَّ لفظى مذكور فى القرآن فى قوله تعالى فى سورة " الرحمن " : ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾[١] ، وقد حمانى أميرُ المؤمنين المتوكل[٢] ، كما حمى الشقائق النعمان[٣] ،وهذا تقليد من الخلافة بالملك على سائر الريحان ، ولى من بينهم ابـن يخلفـنى فى الحكم إذا غبت طول الزمان .

---

(١) آية (٣٧) سورة الرحمن .

(٢) المتوكل العباسى (٢٠٦ – ٢٤٧هـ = ٨٢١ – ٨٦١م): جعفر بن المعتصم بالله بن هارون الرشيد ، خليفة عباسى ، ولد ببغداد وبويع بعد وفاة أخيه الواثق ، وكان جواداً محباً للعمران ، نقل مقر الخلافة من بغداد إلى دمشق ولكن لم يطب له مناخها فأقام فى سامراء إلى أن اغتيل فيها . (الأعلام ١٢٧/٢) .

(٣) النعمان بن المنذر بن امرئ القيس اللخمى (٥٨٢ – ٦٠٩م) وهو من أشهر ملوك المناذرة قبل الإسلام، كان داهية مقداماً ، ملك الحيرة إرثاً عن أبيه ، واستمر فى الحكم حتى قُتل على يد كسرى بسبب مكيدة دبرها له زيد بن عدى العبادى (شبكة المعلومات الدولية (الأنترنت : موقع : https://ar:wikipedia.arg

ولهذا دُقَّت من داراتى البشائر ، وأُعِلمَتْ فىَّ المشاعُر ، وقال فىَّ الشاعر[١] :

للـــورد عنـــدى محـــلٌ ... لأنـــــه لا يُمَـــــلُّ
كـــل الريـــاحين جُنـــدٌ ... وهـــو الأمـــير الأَجَـــلُّ
إن جـــاء عـــزّوا وتـــاهوا ... حـــتى إذا غـــاب ذلُّـــوا

وقال الآخر[٢] :

مليكُ الوردِ أقبـــل فى جيـــوشٍ ... مـــن الأزهـــارِ فى حُلـــلٍ بهيـــة
فوافَتْـــه الأزاهـــرُ طائعـــات ... لأنَّ الـــوردَ شـــوكَتُه قويـــة "

يزهو " الورد " تيهاً ويفخر على أقرانه بذكره فى القرآن الكريم ، فكثير من المفسرين على أنَّ معنى قوله تعالى : " وَرْدَةً كَالدِّهَانِ " أن تكون السماء يوم القيامـــة حمـــراء متصفة بلون الورد ، ومشابهة للون الجلد[٣] .

وكذلك يفخر الورد بحماية أمير المؤمنين " المتوكل " له ، فقد جاء أن الخليفة كان يمنع الورد من الناس ويستبد به فلا يُرى إلا فى مجلسه ، ويرى أنـــه لا يـــصح للعامة ، وكان يقول : " أنا ملكُ السلاطين ، والورد ملكُ الرياحين ، وكلٌّ منا أوْلى بصاحبه "[٤] .

أما افتخار " الورد " بحماية الملك النعمان للشقائق فقد جاء أنه حمى أرضاً ، فنبـــت فيها نوْرٌ أحمر يسمى "الشقائق"،ونسب للملك لأنه استحسنه وأمر بحمايته[٥].

---

(١) ذكر الإمام السيوطى فى حسن المحاضرة أن الشاعر : هو المعروف بابن سكرة الهاشمى ، واسمه أبو الحسن محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٣٥٠هـــ ، ينظر : " وفيات الأعيان ٤/٤١٠- والأبيات من بحر " المجتث " .

(٢) هو : شمس الدين محمد بن على النواجى ، صاحب " حلبة الكميت " المتوفى بمصر عام ٨٥٩هـــ (ينظر : " الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٧/٢٢٩) والبيتان من بحر الوافر .

(٣) ينظر : " أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن " لمحمد بن الأمين بن محمد المختار الشنقيطى حـــ ٧ – ص ٥٠٢ – ط دار الفكر للطباعة والنشر ١٤١٥هـــ – ١٩٩٥م .

(٤) " حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة " للإمام السيوطى – ص ٢١٧ .

(٥) ينظر : " لسان العرب " – ١٠/١٨١ .

ويبدو أن بلغ الفخر مداه فزهر " الورد " لم يعُدّ ما ذكر من مناقب فقط إيذاناً بالملك ، وإنما يتطلع إلى تحقيق " الخلافة " فى عرش الزهور ، وأن تكون فى أبنائه ، وذلك فى قوله "ولى من بينهم ابن يخلفنى فى الحكم " فى إشارة إلى الخليفة " المنتصر بالله "[١] الذى خلف والده " المتوكل " على إمارة المؤمنين ، وعلى ذلك لا يعد غريباً أن ينتفض الشعر مدحاً للورد وإطراءاً .

ولعل ذلك كان اعترافاً مبكراً من السيوطى بإمامة الورد على الرياحين ، ودافعاً لأن يبدأ به فى تقديم حجته قبل أقرانه من الزهور .

وفى مشهد آخر يصور السيوطى زهر " النرجس " غاضباً ثائراً ، " يقوم على ساق ، ويرمى الورد بالأحداق " ، يرد مزاعم الورد يقول : " لقد تجاوزت الحد يا ورد ، وزعمت أنك جمع فى فرد ، إن اعتقدت أن لك بحمرتك فخرة ، فإنها منك فجرة ، قال النبى – صلى الله عليه وسلم – : " إن الشيطان يحب الحمرة فإياكم والحمرة ، وكل ثوب ذى شهرة"[٢] ، وإن قلت أنك النافع فى العلاج ، فكم لك فى منهاج الطب من هاج ؟ ، ألست الضار للمزكوم ، المعطش للمحرور ؟ ، أتغترُّ ببردك القشيب ، وأنت الجالب للمشيب ؟! ، فاحفظ بالصمت حرمتك وإلا أكسر بقائِم سيفى شوكتك ، ويكفيك قول ابن الرومى[٣] فيك :

---

(١) المنتصر بالله محمد بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ، بويع بالخلافة بعد قتل أبيه فى شوال ٢٤٧هـ ، وأظهر العدل والإنصاف فى الرعية ، ولم يمكث فى الخلافة إلا أشهر معدودة ، وتوفى فى الخامس من ربيع الأول عام ٢٤٨هـ عن ست وعشرين عام ، ينظر (تاريخ الخلفاء للسيوطى – ص ٢٨٣ – ط دار ابن حزم للطباعة – الأولى – ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .

(٢) ورد فى " ضعيف الجامع الصغير " للسيوطى – تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى – ط المكتب الإسلامى – الثانية ١٩٧٩م .

(٣) ابن الرومى (٢٢١ – ٢٨٣هـ / ٨٣٦ – ٨٩٦م) : على بن العباس بن جريج الرومى ، شاعر كبير ، من طبقة بشارالمتنبى ، رومىّ الأصل ، ولد ونشأ ببغداد ، ومات فيها مسموماً ، وله ديوان شعر مطبوع (الأعلام ٢٩٧/٤) .

يا مادح الورد لا ينفك من غلَطِه ألستَ تنظرهُ فى كفِّ ملتقطه[١]؟

يخاطب " النرجس " الوردَ مفنداً مزاعمه ، ويردّ عليه ما يعتقد أنها مناقب تجلب المحمدة ، يصورها النرجس مسالب تجلب المذمة .

فهو ينصحه بالصمت ستراً لهذه المسالب ، ويبدو أنه لا مانع لدى النرجس من الوعيد ! أن يميل على الورد بمشوق قوامه فيكسر أشواكه الضعيفة ، ثم هو يذكرّه بذم ابن الرومى له شعراً حين يراه مُمتَهَناً ومطروحاً تلتقطه الأيادى .

ثم يحاول " النرجس " أن يحوز لنفسه السبق فيستدرك بذكر ماله من خصال وفوائد ، يقول : ولكن أنا القائم لله فى الدياجى على ساقى ، الساهر طول الليل فى عبادة ربى فلا تطرف أحداقى ، وأنا مع ذلك المُعَدُّ للحروب،المدعوّ عند تزاحم الكروب،ألا ترى وسطى لا يزال مشدداً ، وسيفى لا يبرح مجرداً ، وأنا فريد الزمان فى المحاسن والإحسان ،ولهذا قال فىّ "كسرى أنو شروان "[٢] : " النرجس ياقوت أصفر ، بين در أبيض ، على زمرد أخضر " ، وأنا المشبه بى عيون المِلاح ، والمعروف فى مهمات الأدواء بالصلاح .. أنفع غاية النفع من داء الثعلب والصرع ، وشمّى ينفع من وجع الرأس والزكام البارد ، وفىّ تحليل قوىّ لمن هو قاصد .... ولولا اشتهارى بالنفع من الجوَى ما أكثر النحاة التمثيل بقولهم : " نرجَسَ الدوا "[٣] ، ولقد أحسن ابن الرومى حين قال مبيناً فضلى[٤] :

أيُّهـــا المحـــتجُّ للـــور د بـــزورٍ ومحـــال

---

[١] – ديوانه حـ ٤ ص ١٤٥٢ – ط دار صادر بيروت – دون تاريخ ،والبيت من بحر البسيط

[٢] – " حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة " – جـ٢ – ص ٤٠٨ – "مرجع سابق" .

[٣] – أى " جعل فيه نرجساً " ، ينظر : " قطر الندى وبل الصدى " لابن هشام – تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد – ص ٣٤ – ط دار الخير – الأولى ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م

[٤] – الأبيات ليست في ديوانه المطبوع ، وذكرها السيوطي أيضاً في " حسن المحاضرة "جـ٢ – ص٣٦٣ ، وهى من مجزوء الرمل .

ذهـــبَ النـــرجسُ بالفـــضـــ ـــل فأنـــــصف فى المقـــــال
لا تقـــاس الأعـــين النجـــــ ـــل بأعقـــــاب البغـــــال "

بدا فى هذا النص أن أكثر ما يفخر به زهر " النرجس " قوامه الممشوق ، وقوة عوده وقد صوره الإمامُ قائماً ليلَه يصلى لله ، وفارساً شجاعاً يتجهز دائماً للحرب .

وفى النص أيضاً بدا النرجس مفتخراً بفوائده الطبية ، ومزهـــواً لـــشهادة الأعلام بجماله وبريق ألوانه ، لاسيَّما الشاعر " ابن الرومى " الذى بالغ فى شـــهادته للنرجس ، وراح يتغنى به شعراً ، ويحطُّ من شأن غريمه[١] .

وبعد أن أنهى " النرجس " حديثه عن أسباب حجته ، وأدلة ســـبقه تتـــسع أبعاد الصورة ليظهر فى المشهد طرف ثالث من أطراف الصراع على عرش الزهـــور هو زهر " الياسمين "[٢] الذى انتفض من مجلسه قائماً واتخذ من النرجس غريماً وبادره يقول :

" آمنت برب العالمين ، لقد تجبَّست يا جبس[٣] ، وأكثرك رجـــس نجـــس ، وأنت قليل الحرمة ، واسمك مشمول بالعجمة ، وكيف تطلب الملك وأنت بعد قائم مشدود الوسط فى الخدمة ؟! ورأسك لا يزال منكوس ، وأنت المهيج للقئ والمصدع للرؤوس ، تسقط الجنين ، ولا ترثى للجنين ، أصفر من غير علة ، مكسوٌّ أصفر حُلَّة ويكفيك قول بعض واصفيك :

---

(١) ومن ذلك قوله :

يا مادح الوردِ لا ينفك من غلطه ألستّ تنظُرهُ فى كفٍّ مُلتَقِطِه

وجاء فى " حسن المحاضرة ص ٢٢٠ : أن ابن المعتزّ ردَّ على ابن الرومي بقوله :

يا هاجى الورد لا خيبت من رجل غلطت والمرء قد يؤتى على غلطه
هل تنبت الأرضُ شيئاً من أزاهرها إذا تحلّت بحلى الوشى من نمطِه
أحلى وأشهر من ورد له أرج كأنما المسك مزرور على وسطه

(٢) اسم فارسي معرب ، ينظر : " المعَّرب " للجواليقى – ص ٣٥ – ط دار الكتب – الثانية ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

(٣) الجِبْس : الردئ الدنئ الجبان (لسان العرب – مادة جبس – ٣٤/٦) .

أرى النرجس الغض الذكى مُشَمِّرا على ساقه فى خدمة الورد قائم
وقد ذلَّ حتى لف من فوق رأسه عمائمَ فيها لليهود علائم"

يبدو وأنَّ جزاء " النرجس من جنس عمله مع الورد ، حيث يفند " الياسمين " مزاعمه ، ويحول إلى عيوب محاسنه ، فقيام النرجس مشدود الوسط : شأن الخدم ، وفوائده الطبية : أكاذيب وتضليل ، وحين يذكره الشعر فبصفات الذل والخضوع.

ثم يجئ الوقت ليحوِّل " الياسمين " دفة السبق منتصراً لنفسه ، فيقول مستدركاً : " ولكن أنا زين الرياض ، والموسوم فى الوجه بالبياض ، و " البياض شطر الحسن " كما وَرَد ، وأنا ألْطف وَرْدٍ جاء ووَرَد ، وجاء ذكرى فى " حديث " فاح بنشره : " إن قارئ القرآن يؤتى بياسمين الجنة فى قبرة " ، فحديثى أصحُّ من حديثك سنداً ، ونشرى أعبق من نشرك صباحاً ونِدىً ، فأنا أحق بالملك منك منصوراً ومؤيداً ... " ، ثم يستطرد " الياسمين " فيذكر ما اشتهر به من فوائد طبية ، وما قال الأعلام فى حقه ، يقول : " وأنا النافع من أمراض العصب الباردة ، والملطف للرطوبات الجامدة ، والصالح للمشايخ القاعدة ، أنفع من اللقوة[1] ، والشقيقة[2] ، والزكام وأقطع نزف الأرحام ، يقول لى لسان الحال : لسْتَ الهزيل مقاماً يا ياسمين ، ويشهد لى لسان الأثلغ بأنى الدرُّ الغالى إذا قيل ياثمين ، وقال بعض البلغاء فىَّ[3] :

أنا الياسمين الذي لطفتُ فنلت المنى
فريحي لمن قد نأى وعَيْني إلى مَنْ دَنَا
وقد شرُفت حضرتي بصبري على من جَنَى "

---

(١) اللَّقْوة:داء يكون فى الوجه يَعْوَج منه الشدق (لسان العرب – مادة لقا – ١٥/٢٥٣).

(٢) الشقيقة:داء يأخذ فى نصف الرأس والوجه (لسان العرب – مادة شقق – ١٠/١٨١) .

(٣) جاء فى " جنى الجناس " للسيوطى – ص ٧٤ : أن القائل : ابن الوردى ، غير أن الأبيات لم ترد فى ديوانه المطبوع ، وهى من مجزوء المتقارب .

وبعد أن أنهى " الياسمين حجته وأدلة عزته – من جمال الشكل واللون ، وشهادة الأعلام ، وعموم الفائدة – إذا بزهر " البان "[١] يظهر إلى جواره ، وقد بلغ به من الغضب مداه ، ومن الغيظ ذراه ، ويصور الإمام السيوطى – بلسان الراوى – ذلك المشهد يقول :

" فقام " البان " ، وأبدى غاية الغضب وأبان ، وقال : لقد تعدَّيْتَ يا " ياسمين " طورك ، وأبعدْتَ فى المدى غورك ، وكونك أضعف الكون ، وكثرة شمِّك تصفِّر اللون ، وإذا سحق اليابس منك ورُضَّ ، وذرَّ على الشعر الأسود ابْيَضَّ ، وإذا قُسِمَ اسمُك قسمين صار ما بين يأسٍ ومَيْن ، وإن ذكرتَ نفعَكَ فأنت – كما قيل لا تساوى جمعك ، ولقد صدق القائل فى الأوائل :

لا مرحباً باليـاسمين وإن غدا فى الروضِ زيْنَا
صحَّفتُه فوجدتُه متقا بلاً يأساً ومَيْنَا "

ينكر " البان " على " الياسمين " فوائده الطبية ، ويردد ذِكْره فى الشعر بالضُرِّ ، ثم يغمز – فى طرافة – بحروف اسمه الستة ، حيث تُكوِّن الثلاثةُ الأولى منها كلمة " يأس " ، والثلاثة الأخرى كلمة : مَيْن " وهما صفتين مذمومتين .

وينتقل : البان " إلى ما يظن أنه يحقق له السبق من ذكر اسمه ، وصفات جسمه ، يقول : " ولكن أنا ذو الاسمين ، والظاهر من الأصل والفرع بالقسمين ، والقريبُ من الباز ، والمضروبُ بقدَّى المثلُ فى الاهتزاز ، أزهارى عالية ، وأدهانى غالية ، وقد أُلبستُ خلعة السنجاب ، واتفق على فضلى الأنجاب ، أنفع بالشم مَنْ مزاجهُ حار ، وأُرَطِّبُ دماغه ، وأسكِّنُ صداعه الكائن من البخار ، ودهنى نافع لموضع كل وجع بارد ، وتحت ذلك صور كثيرة الموارد ، ويكفى فى وردى قول ابن الوردى[٢] :

---

(١) شجر يسمو ويطول فى استواء ، أوراقه هدب ، وثمرته تشبه قرون اللوبياء ، إذا انتهى انفتق وظهر منه حب أبيض ، ومنه يُستخرج دهن البان . ينظر (اللسان جـ١ – ص ٦٢) .

(٢) والبيتان فى ديوانه – تحقيق : عبد الحميد هنداوي – ص ٢٢٣ ، ط الأولى ١٤٢٧هـ، وهما من بحر الوافر .

تجادلنا أماءُ الزهـــر أزكـــى أم الخلاَّف ، أم ورق القطـــافِ؟
وعقبى ذلك الجدل اصطلحنا وقد وقع الوفاق على الخلاف "

يبدو أن زهر " البان " لم يفتأ يغمز معرضاً بصاحبه " الياسمين " ، وحُقَّ له ، فحـــين تنقسم حروف اسمه إلى صفتين مذمومتين يذيع للبان بين الأشجار اسم آخـــر هـــو " الخلاف " ، بل وتتعدد اسماؤه باختلاف الأقطار بين شـــجر " البـــان ، والخـــلاف ، والسّوع ، واليُسر ، والمورنجا ، والرواق ،والحبة الغاليـــة "،وغـــير ذلـــك مـــن الأسماء[١] .

كما يبدو من النص فخر زهر " البان " بـــشكله ، وقوامـــه ، ونعومتـــه ، وفوائده الطبية ، ورائحة ثماره المتفق على طيبها وذكائها .

هكذا يدير الإمام الحوار بين الزهور المتخاصمة ، وفى مشهد آخر يـــصور زهر " النسرين "[٢] قائماً بين المتحدثين يحاول نصرة أخيه " اليـــاسمين ، يقـــول : " أتتعدى يا " بان " على شقيقى ، وأين الفراء[٣] من الذهب الدبيقى[٤] ، وكيف يفاخر البللور مَنْ هو مشبَّهٌ بذَنَب السِّنور[٥] ؟ ألم يُعرِّفك الحالُ قول مَنْ قال[٦] :

لله بـــستان حللنـــا روحـــهُ فى جنة قد فُتّحـــت أبوابُهـــا
والبان تحسبه ســـنانيراً رأتْ بعض الكلاب فنفشت أذنابها"

---

(١) ينظر : أسماء الزهور –شبكة المعلومات الدولية موقع : www.mekshat.com .
(٢) النسرين : ورد أبيض عطرى قوى الرائحة ، واحدته نسرينة (شبكة المعلومات الدولية ، موقع : www.almaany.com)
(٣) الفراء : حمار الوحشى (لسان العرب – مادة فرأ – ١٢١/١) .
(٤) الدَّبيقى : من دِقٍّ ثياب مصر معروفة تنسب إلى دبيق (لسان العرب – مادة دبق ٩٤/١٠)
(٥) السِّنَّوْر / الهر (لسان العرب – مادة " سنر " – ٣٨١/٤ .
(٦) القائل هو : أوجلنَّك الحلبى ، ينظر : " فوات الوفيات " – محمد بن شاكر الكتبى ، تحقيق : د/ حسان عباس – جـ ١ – ص٦١ – ط دار صادر – الأولى ١٩٧٣م ، والبيتان من بحر الكامل .

بهذه الكلمات ينتصر " النِّسرين " لشقيقه " الياسمين " فى إشارة لما بينهما من قرب لوناً واسماً ، غير أن ذلك لم يغنه عن الفخر بنفسه ، وذِكر ما يُعرف بـه مـن فوائد ومنافع ، يقول :

" ولكن أنا زيْن البستان ، وفىّ من الذهب والفضة لونان ، أنفع مـن أورامِ الحلقِ ووجع الأسنان ، ومن برد العصب والدوىِّ فى الآذان ، وإذا شُرب من مجففى نصف مثقال . مَنَعَ إسراع الشيب على التوال ، ويكفيك من المعانى قول مَنْ عنانى :

ما أحسن النسرينَ عنـدى ومـا أملَحَـهُ مـذكان فى عـينى

زهـرٌ إذا مـا أنـا صـحَّفتُهُ وجدتُـه بـشرى ويُـسريْنِ

بدا من هذا النص أن أكثرِ ما يفخر به زهر " النسرين " ما اشتهر به من النفـع فى مجال الطب ، وما ذُكر به فى الشعر من صفات الخير ، فى إشارة إلى ما تصفه حروف اسمه من تبشير وتيسير حين تُنطق مُصحَّفه[١] .

ثم يأتى الدور على زهر " البنفسج " ، فيقوم " وقد التْهب ، ولاحت عليه زرقة الغضب ، وقال : أيها النِّسرين : لستَ عندنا من المعدودِين ، ولا فى العلاج من المحمودين ، وأنت كثير الإذاعة ، فلست على حفظ الأسرار بأمين ، ويعجبنى فيك ما قال بعض المتقدِّمين[٢] :

ولم أنسَ قولَ الورد لا تركنـوا إلى معاهدةِ النسرين فهـو يمـينُ

ألا تنظـرو منـه بنانـاً مخـضباً وليس لمخضوبِ البنانِ يمـينُ

ولكن أنا اللطيف الذات ، البديع الصفات ، المشبَّه بزق اليواقيت وأعنـاق الفواخيت[٣] ، ومزاجى رطب بارد ، ومنافعى كثيرة الموارد ... " .

---

(١) التصحيف : هو قراءة الكلمة على غير صحتها لاشتباه فى الحروف ، ينظر : اللسان – مادة صحف – ١٨٦/٩ .

(٢) البيتان لمجير الدين بن تميم الحموى المتوفى سنة ٦٨٤هـ ، ينظر حلبة الكميت فى الأدب والنوادر – شمس الدين النواجى – ص ٢٤٩ – ط مصر – ١٩١٦م .

(٣) مفرد فاختة وهى ضرب من الحمام المطوق (لسان العرب – مادة فخت – ٦٥/٢)

يبدو أنْ كَثُرت منافع زهر البنفسج وفوائده بحيث وفَّاه الإمام السيوطى – وصفاً – ما لم يُوفِّه غيره من الزهور ، ومن ذلك فوائده الطبية وقد أفاض الإمـــام فى ذكرها ، ومن ذلك قوله بلسان " البنفسج " :

" وكفانى شرفاً بين الإخوان : ما روى عن سيِّد ولد عدنان : أنَّ دُهنى سيد الأدهان[١] ، بارد فى الصيف حارٌّ فى الشتاء ، صالح فى كل زمان .... وروى ابن أبى حاتم[٢] ، وغيره عن الإمام الشافعى صاحب المَذْهب المُذهب أنه قال : (لم أرَ للوباء أنفع من البنفسج ، يُدهَنُ به ويُشرب) ، ومنافعى لا تُحصى ، وما أودعه خالقى فِىَّ لا يُستقصَى ، وبى تُعطر الجيوب ، ويشبه عذارُ المحبوب ، وأنا مع ذلك حسن الفال ، بديعُ الجمال من رآنى آذن بالانشراح ، وتفاءل بالانفساح ، أما سمعتَ قول مَنْ باح وصاح :

يـــا مهـــدياً لى بنفـــسجاً يرتاح صدرى له وينـــشرحُ
بشرنى عـــاجلاً مـــصحَّفُهُ بأن ضيق الأمور ينفـــسحُ "

وإذا كان " البنفسج موفقاً فى الاستشهاد بأقوال الأعلام فى فوائده وذكر محاسنه فإنه لم يكن موفقاً حين احتج بهذين البيتين ، فصاحبهما وهو " أبو الفضل المكيـــالى "[٣] الذى صاح وباح سرعان ما انقلب على " البنفسج " ذاماً وناقماً يقول :

---

(١) حديث موضوع ، ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات – جـ٣ – ص ٦٤ ، ونصه : " فضل زهر البنفسج على سائر الزهور كفضلى على سائر الخلق " ، وجاء فى " حسن المحاضرة " للسيوطى ص ٢٢٢ أنه متفق على وضعه .

(٢) هو عبد الرحمن بن محمد بن أبى حاتم الرازى ، من حُفَّاظ الحديث ، صاحب كتاب " الجرح والتعديل " ، وتوفى سنة ٣٢٧هـ ، ينظر : " طبقات الحفَّاظ " – للسيوطى ص ٣٤٥ – ط دار الكتب العلمية (بيروت) – الأولى ١٤٠٣هـ .

(٣) عبيد الله بن أحمد بن على بن إسماعيل مكيال ، المعروف بأبى الفضل المكيالى ، كاتب وشاعر ، توفى عام ٤٣٦هـ ، والبيتان فى " فوات الوفيات " لابن شاكر الكتبى – جـ ٢ – ص ٤٩٣ ، وهما من بحر المنسرح .

يـــا مهـــدياً لى بنفـــسجاً ... وددت لو أنَّ أرضـــه سَـــبَخُ
بشَّرنى عـــاجلاً مـــصحَّفُهُ ... بأنَّ عقد الحبيـــب ينفـــسخُ

فى إشارة واضحة إلى ما بين كلمتى " بنفسَج " و " وينفسخ " من تشابه فى الحروف ، وهذا هو معنى التصحيف .

ولعل هذيْن البيتيْن سمعهما مَن جاء هذا الذم علـــى هـــواه ، وهـــو زهـــر " النيلوفر "[١] – أحد الغرماء – فانتفض يأخذ طـــرف الحـــوار ويحـــاجج غريمـــه "البنفسج" ، ويصور الإمام السيوطى المشهد يقول :

" فقام " النيلوفر " على ساق ، وحشد الجيوش وســـاق ، وأنـــشد بعـــد إطراق[٢] :

بنفسج الروض تاه عجبـــاً ... وقـــال : طـــيبى ضـــمَّخ
فأقبل الزهـــر فى احتفـــال ... والبـــان مـــن غيظـــه تـــنفَّخ

ثم قال : أيُّها البنفسج " بأى شئ تدَّعى الإمارة ، وتطاوع نفسكَ والنفس أمَّـــارة ؟! وأكثر ما عندك أنك تُشبَّه بالعِذار ، وبالنار فى الكبريت ، وحاصل هذين الـــشيئين يرجع إلى أشنع صيت ، وما مِن نفعٍ ذكَرْتَهُ إلا وأنا أفعل مثله وأكثر ، كما أنِّ أحرى بسلامة العاقبة منك وأجدر ... " .

والنيلوفر إذ يحطُّ من شأن البنفسج فى هذا النص نراه يعلى كثيراً من شأن " الورد " ، يقول مخاطباً البنفسج :

" وقد كفانا الورد مؤونة الرد عليك ، وحذَّرنا من القرب منك ، والإصغاءِ إليك ، فقال[٣] :

---

(١) كلمة فارسية معربة لضرب من الرياحين ، ينبت فى المياه الراكدة ، له أصل كالجزر ، وساق أملس يطول حسب عمق الماء ، ينظر : " تذكرة داود – داود بن عمر الأنطاكى – جـــ ١ – ص ٣٣٣ – ط المطبعة العثمانية المصرية – الأولى ١٩٣٧م .

(٢) البيتان لعز الدين الموصلى فى " مطالع البدور فى منازل السرور البهائى الغزولى " – جـــ١ – ص ١٠٥ – ط مكتبة الثقافة الدينية – الأولى ١٩٩٨م – وهما من مخلع البسيط .

(٣) جاء فى " مقامات السيوطى " تحقيق سمير الدروبى – ص ٤٥٩ : أن البيتين لمحمد بن نصر الله الشيبانى المتوفى سنة ٦٢٢هـــ ، والبيتان من بحر الكامل .

أعلىَّ يفتخرُ البنفسج جـاهلاً وإلىَّ يُعزىَ كـل فـضل يبـهرُ
وأنا المحبَّـبُ للقلـوب زمانُـهُ وبمقدمى أهلُ المـسرَّة يفخـرُ

وقال الحاكى عن الورد الباكى[١] :

عاينت وردَ الروض يلطم خـده ويقول وهو على البنفسج يحنقُ
لاتقربـوه وإن تـضوع نـشرُه ما بينكم فهـو العـدو الأزرقُ

ولكن أنا اللطيف الخواص ، الكثير الغواص ، أُسَكِّنُ الصداعَ الحار ، وأذهبُ بالأرق والأسهار ، وشرابى صالح لأصحاب الحميات الحادة ، ونافع من الـسُعال ويُـبْسِ المادة..."

بهذا يبدو أن أَفاقَ " النيلوفر " ، وَشَعُر بنصرة على البنفسج ، وأنَّه أهـوَن عليه ، فراح يبدى محاسن نفسه ، ويحط من شأن الورد ، ومَن يظن أن لهم دفة السبق ، مستشهداً بما جاء فى ذلك من الشعر ، يقول :

" وما أحسن ما قال فىَّ بعض واصفىَّ[٢] :

يرتاح للنيلـوفر القلـب الـذى لا يستفيق من الغرام وجَهْدِهِ
والورد أصبح فى الـروائح عبـده والنرجس المسكىُّ خادم عبدهِ
يا حسنه فى بركة قـد أصـبحَتْ محشوةً مسكاً يُشاب بنَـدِّهِ[٣]

ومِنِّى صنف يقال له " البشنين "[٤] ، يشابهنى فى التكوين لا التلوين ، يحـدثُ عنـد إطباق النيل ، وله فى منافع الطب تنويل ، دهنه نافع فى البرسام[٥] ، إذا تسقط بـه ذوو الأسقام .... " .

---

(١) القائل هو مجير الدين بن تميم الحموى ، ينظر : " حلبة الكميت – ص ٢٤٧ ، والبيتان من بحر الكامل .

(٢) الأبيات لابن الرومى فى ديوانه – جـ ٢ – ص ٨٠٦ ، وهى من بحر الكامل .

(٣) الند : ضرب من الطيب يدخن به (لسان العرب – مادة "ندد" – ٤١٣/٣).

(٤) نبات ينبت فيما يخلفه النيل من الماء عند رجوعه ، وزهره أقرب إلى البياض ، يظهر فى الشمس ، ويخفى إذا غابت ويُدْعَى " ورد النيل " (تذكرة داود ١ : ٧٦) .

(٥) ورم حاد يعرض فى الحجاب الحاجز ، وتتبعه حمى وسعال (لسان العرب – مادة "برسم" ٤٦/١٢ .

وبعد أن أنهى النيلوفر حجته يظهر فى المشهد زهر " الآس " ، ويصور الإمام السيوطى دخوله حلبة الصراع ، يقول :

" فقال " الآس " – وقد استعدَّ – وقال : لقد تجاوزت يا " نيلوفر " الحدّ " وقد عرفك من قال حين وصفك :

ونيلوفر أبدى لنـا باطنـاً لـه ... مع الظاهر المخضرِّ حمرة عَنْدَمِ

فشبَّهتُهُ لمـا قـصدت هجـاءهُ ... بكاسات حجَّام بها لوثةُ الـدمِ

ولكن أنا أحق بالملك منك بالحجة المبينة ، فقد أخرج ابن أبي حاتم ، وابن السُّنى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – : (أول شئ غرس نوحٌ – عليه الـسلام – الآس حين خرج من السفينة)[١] ، وهذه حجةٌ على الاستحقاق قوية ، لأن للأولية نوعـاً من الأولوية .... " .

شأن جميع أطراف المفاخرة بدأ " الآس " – فى هذا النص – حجَّتهُ بتفنيـد حجة سابقه ، ثم استدرك يذكر محاسنه ، وما يراه من أدلة سبقه ، ثم يذكر ما اشتهر به من فوائد طبية ، يقول :

" وأنا المقوِّى للأبدان ، المنشِّفُ من الرطوبات والمـانع مـن الـصُّنَّان [٢]، المسكِّنُ للأورام والحمرة والخفقان ، وإذا دُقَّ وَرَقِيَ الغَضُّ ووُضع على الرأس قطـع الرعاف ، وحَبِّى يقطع العطش وينفع إذا تدخنت به المرأة من الإنزاف ..... وأنـا الباقى على طول الزمان ، وقد قال فىَّ بعض الأعيان[٣] :

---

(١) أخرجه السيوطى فى " حسن المحاضرة ٢/٤١٧ نقلاً عن ابن أبي حاتم فى تفسيره ـ تحقيق : أسعد محمد الطيب – ط مكتبة نزار مصطفى الباز (الرياض) – الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٧م .

(٢) الصُّنان :رائحة المغابن ومعطف الجسم إذا فسد وتغير (لسان العرب " مادة صنن "١٣ /٢٤٩).

(٣) البيتان للأخطل الأهوازى ، ينظر : " حسن المحاضرة جـ ٢ ٤١٧ ، والبيتان من بحر الكامل .

للآس فـــضلُ بقائِـــهِ ووفائِـــهِ ودوام منظره علـــى الأوقـــاتِ
قامت علـــى أغـــصانه وَرَقَاتُـــهُ كنصول نبلٍ جـــئنَ مؤتلفـــاتِ

أمَّا آخر الزهور المتخاصمة ظهوراً فى المشهد فزهر " الريحان " ، ويـــصوره الإمـــام السيوطى قائماً للآس ، ويحتدم بينهما الصراع فينادى الريحان : " يا آس : لأجرحنَّك جرحاً ماله آس ، ألم يرد فيك من طرق الأئمة الأعلام عن الـــنبى عليـــه الـــصلاة والسلام : أنه نهى عن التخلُّلِ بك والاستياك ، لأنك تسقى عروق الجُذامِ[١] ، قـــال الشاعر[٢] :

إذا قالـــــت حـــــزام فـــــصدقوها فإن القول ما قالـــت حـــزام

وأنا الواردُ فىّ[٣] : " عليكم بالمرزنجوش فشموه فإنه جيد للخشام "[٤] ، وأنا المنّـــوه باسمى فى القرآن فى قوله تعالى : " فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ "[٥] ، وإن كان الجنس هو المراد ، فقد قُصِر هذا الاسم علىَّ فى العُرفِ قصرَ إفراد ، وقد ورد فى الصحيحين عن ســـيد بنى كنانة : " مثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة "[٦] ، وحسبك منِّـــى فى التشبيه قول من قال[٧] :

أما ترى الريحـــان أهـــدى لنـــا حمامـــــاً منـــــه فأحيانـــــاً

---

(١) أورده السيوطى فى " اللآلئ المصنوعة ") ١٣٨/٢ – ط دار المعرفة – الثانية ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م ، والجذام : من الداء معروف بتجذم الأصابع وتقطيعها (لسان العرب "مادة جذم" –٨٦/١٢).

(٢) جاء فى " اللسان –١٢/ ٨٦ " : أن الشاعر هو وسيم بن طارق ، ثم قال : ويقال : لجيم بن صعب ، وللأخير عزاه النحاة ، ينظر : " حاشية الصبان على الأشمونى ٣/ : ٢٦٨ .

(٣) الجامع الكبير ٥٨٠/١ .

(٤) الخشام : داء يأخذ فى جوف الأنف فيغير رائحته (لسان العرب – مادة خشم ١٧٨/١٢)

(٥) من الآية (٨٩) ، سورة الواقعة .

(٦) – ورد فى فتح البارى " بشرح صحيح البخارى – أحمد بن على العسقلانى ٦٦/٩ – ط دار المعرفة – بيروت ١٣٧٩هـ .

(٧) – البيتان لأبى القاسم العطار فى " نزهة الأنام فى مجلس دمشق " – لأبى البقاء المصرى الدمشقى – ص ١٠٢ – ط المطبعة السلفية – القاهرة ١٣٤١هـ .

تحـــسبه فى طلّـــه والنـــدى زمـــرداً يحمـــل مرجانـــا "

لعل حديث زهر الريحان فى إبداء حجته يأتى تتويجاً لأسلوب الإمام فى إدارة الحـوار بين الزهور المتفاخرة ، فالريحان بدأ بتفنيد حجة غريمه " الآس " ثم أخـذ فى ذكـر محاسن نفسه ، وأقوال الأعلام فيه ، لاسيَّما ما يُنسب للـنبى – صـلى الله عليـه وسلم – .

غير أن ما يُعد غريباً على هذا الأسلوب فى إدارة الحوار أن يعيـد الإمـام طرفه إلى زهر " الآس " على الرغم من أنه قد أنهى دوره فى إبداء حجتـه ، فهـو يصوره عائداً وغاضباً يعطف على الريحان قائلاً :

" يا ريحان : أتريد أن تسود وأنت مشبَّهٌ بهامات العبيد السود ألم يغنك عن مقصورى قول الشهاب المنصورى[1] :

أهـــلاً وســـهلاً برياحيننـــا كأنهـــا هامـــات تكـــرورى

وقول الآخر[2] :

وريحـــان تمـــيس بـــه غـــصون يطيب بشمه لـــثم الكـــؤوس

كـــسودان لبـــسْنَ ثيـــاب خـــزٍّ وقد قاموا مكاشيف الرءووس"

وبهذه التقفية لزهرة الآس أنهت كل زهرة عرض حجتها ، ومفاخرة أختـها ببيـان فضلها وفوائدها ، وما ذكر عنها فى القرآن الكريم ، والحديث النبوى الـشريف ، وكذلك ما جاء فيها من أخبار وأشعار ، ليعود الإمام السيوطى من جديد – بلسان راوى المقامة – يخبر بما بقى فى القصة من أحداث ، يقول :

" فلما أبدى كلٌّ ما لديه ، وقال ورُدَّ عليه ، اتفق رأى الناظرين ، وأهـل الحلّ والعقد من الحاضرين ، على أن يجعلوا بينهم حكماً عادلاً ، يكون لقطع النزاع بينهم فاصلاً ... " .

---

(١) أبو العباس أحمد بن محمد بن على ، المعروف بالبهائم ، شاعر مصرى توفى سنة ٨٨٧هـ ، ينظر : " حسن المحاضرة " ٥٧٤/١ ، والبيت من بحر السريع .

(٢) البيتان لابن عبد ربه الأندلس – صاحب العقد الفريد – فى " نزهة الأنـام " – ص ١٥٨ ، غير أنهما لم يردا فى ديوانه ، وهما من بحر الوافر .

ثم أفاض الإمام فى ذكر صفات ذلك الحكم الذى تزامن مروره على الحديقة مع وقت المفاخرة ، يقول :

" فقصدوا رجلاً عالماً بالأصول والفروع ، حافظاً للآثار الموقوف منها والمرفوع ، عارفاً بالأنساب مميزاً بين الأسماء والألقاب والأتباع والأصحاب ، مديد الباع ، بسيط اليدين فى معرفة الخلاف والإجماع ، خبيراً بمباحث الجدل ، واستخراج مسالك العلل ، متبحراً فى علوم اللغة والإعراب ، مضطلعاً بعلوم البلاغة والخطاب ، محيطاً بفنون البديع ، حافظاً للشواهد الشعرية التى هى أزهى من زهر الربيع ، سديد الرَّمية ، شديد الإصابة ، الشعر والنظم صوغ بيانه ، والنثر والإنشاء طوع بنانه ، والتاريخ الذى هو فضيلة غيرهِ فَضْلة ديوانه ..... "[1] .

ويحكى الإمام السيوطى أن جموع المتخاصمين من الزهور والرياحين ما إن وقعت عيونهم على هذا القاضى حتى قبلوا به ، ومثلوا بين يديه قائلين :

" يا فريد الأرض ، يا عالم البسيطة ما بين طولها والعرض ، إنا أخصام بغى بعضنا على بعض ، فانظر فى حالنا ليكون ذلك زخيرة لك يوم العرض ، واحكم بيننا بالحق ، واقضِ لأيِّنا بالمُلْكِ أحق ، فقال : أيُّها الأزهار : إنى لست كالذى تحاكم إليه العنب والرطب ، إنِّى لا أقبل الرُّشا ، و أطوى على الغلِّ الحشا ، ولا أميل مع صاحب رشوة ، ولا أستحلُّ من مال المسلمين حسوة ، إنما أحكم بما ثبت فى السُّنَّة ، ولا أسلُك إلا طريقاً موصلاً للجنة ، فقصُّوا علىَّ الخبر لأعرف من فَجَرَ منكم وبرَّ ... " .

ويحكى الراوى أنَّ معشر الزهور أعادوا على هذا القاضي ما كان بينهم من حجاج وتفاخُر ، ولَّما قص عليه كلُّ قوله إذا هو يقضى بالفوز والسبق لزهرة ليست من بين هذه الأزهار ، وهى زهرة " الفاغية "[2] ، يقول :

---

(١) ذكر الدكتور سمير الدروبى فى هامش تحقيق المقامات – ص٤٧١ : أن السيوطى فى هذه الأوصاف يغمز معرِّضاً بالإمام شمس الدين السخاوى ، لما كان بينهما من خلاف .

(٢) قال الأصمعى : " الفاغية " هى نور الحناء ، وقيل نور الريحان ، وقيل نبت كل نور من أنوار الصحراء التى لا تزرع ، وقيل فاغية كل نبت نوره . (لسان العرب – مادة فغا – ١٥/١٦٠)

" ليس أحد منكم مستحقاً عندى للملك ، ولا صالحاً للانخـراط فى هـذا السلك ، ولكن المَلِكُ الأكبر ، والسيِّدُ الأبرُّ ، وصاحب المنبر ، ذو النشر الأعطر ، والقدْرِ الأخطر ، السيِّدُ الأيِّدُ ، الصالَحُ الجيِّدُ ، مَنْ شاع فضلُه وانتـشر ، وكـان احبَّ الرياحين إلى سيِّد البشر ، واشتمل على ما فى الرياحين من الحسنى وزيـادة ، وحكَمَ له النَّبيُّ – صلى الله عليه وسلم – بالسِّيادة ، وشهد له بها ، وناهيـك منـه بالشهادة .... " .

ويبدو أن معشر الزهور المتخاصمة لم يرضوْ هذه الإفاضة التى قد تـصل إلى حد الاستطراد ممن اختاروه حَكَمَاً ، فبادروه فى لهفة وشوق :

" أيها الإمام أوضح لنا هذا الكلام ، وارولنا ما ورد عن الـنبى – عليـه الصلاة والسلام – ، لنَبْلغ باتباعه غاية المرام ، وينقطع عنَّا المـلامُ ، فقـال : روى الطبرانى ، والبيهقى ، وابن السُّنى ، وأبو نعيم ، وغيرهم بالأسانيد العاليـة ، مـن حديث بُريدة[1] ، عن النبى صلى الله عليه وسلم – صلاة متتالية – أنه قال : " سيِّدُ الرياحين فى الدنيا والآخرة " الفاغية "[2] ، وروى الطبرانى من حديث عبد الله بـن عمر مرفوعاً : " سيِّدُ ريحان أهل الجنة الفاغية " ، وكفى بذلك سطوعاً ..... " .

وفى ختام مقامته أفاض الإمام السيوطى – بلسان ذلك القاضى بين الزهور فى وصف محاسن زهر " الفاغية والحناء " وفوائدهما الطبية ، وما ورد فيهما من أقوال وأشعار وأخبار ، ولما سمعت الزهور هذا الحديث فى فـضل الفاغيـة : " أطرقـوا

---

(١) بُرَيْدَة بن الحصيب الأسلمى ، صحابى غزا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ست عشرة غزوة وغزا خراسان فى زمن عثمان ، ثم تحول – رضى الله عنه – إلى " مرو " فسكنها إلى أن مات فى خلافة يزيد بن معاوية – ينظر : الإصابة فى تمييز الصحابة – ابن حجر العسقلانى ٢٨٦/١ – ط المكتبة العصرية – الأولى ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م .

(٢) ورد في " شعب الإيمان " لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي – تحقيق : محمد السعيد بسيوني ١٢١/٥ – دار الكتب العلمية – الأولى – دون تاريخ .

رؤوسهم خاشعين ، وظلت أعناقهم لها خاضعين ، ودخلوا تحت أمرها سامعين طائعين ومدُّوا أيديهم لها مبايعين بالإمْرةِ ومتابعين ، وقالوا : لقد كنَّا قبلُ فى غفلة عن هذا إنا كنَّا ظالمين ، وتواصوْا على إشاعة ما فضَّلها الله تعالى به ، وقالوا : ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴾[1] ، ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[2] .

انتهى عرض المقامة " الوردية " بما دلَّت عليه من عمق ثقافة الإمام السيوطى ورحابة فكره ، وخصوبة خياله ، ورقة طبعة ، وقدرته على الإبداع والتلوين ، وكذلك ما دلَّت عليه المقامة أيضاً من ملاءمة حديث المفاخرة بين الزهور موضوعاً غنياً بالطرافة والمباهج والمعانى والدلالات الفنية ، لاسيَّما حين نُميل الطرف عمَّا يكتنف المقامة من صناعة لفظية لم تنل فقط من أسلوب الإمام ، أو فن المقامة العربية ، وإنما أيضاً من العصر الذى أتيانا فيه ، ولعل الصفحات التالية تحمل لهذه الدلالات الفنية مزيد تفصيل .

---

(١) من الآية ١٠٦ سورة المائدة .

(٢) من الآية ٧٥ سورة الزمر .

المبحث الثانى

" مقامة الرياحين " ... قراءة فنية

ليس للفن قواعد ثابتة وقوانين عامة بحيث يتخذها الناقد لتكون عمدته فى نقده الذى يختلف باختلاف ذكاء واستعداد صاحبه ، والأثر الذى يحدثه العمل الفنى فى نفسه .

ولكن ثمة بعض المعايير النقدية التى ينبغى على ناقد العمل الفنى مراعاتها ، وحين يكون النقد بطريق الفن والذوق فأول ما تقع عليه العين : "ظواهر الأسلوب" ، حيث يتفاوت الناس فى اتجاهات العقل والشعور والتأثر ، ومن ثَمَّ كان من الطبعى أن يتبع هذا التفاوت تفاوت فى الأسلوب ، وحين يصدق هذا على الإنسان بعامة فإنه يصدق على الأدباء بطريق أوْلَى .

فليس الأديب إلا الأسلوب الذى هو " مجموعة من ألوان يصطبغ بها الخطاب ليصل بفضلها إلى إقناع القارئ وإمتاعه ، وشد انتباهه وإثارة خياله .... "[1] .

والأسلوب هو " بنية مكونة من عناصر شتى تتآذر متفاعلة لتحققق شكل المعنى " وتدور هذه العناصر فى فلك الأفكار ، والمعانى والألفاظ ، والعاطفة ، والصور ، ولكل منها أثره فى الأسلوب .

وتأسيساً على ذلك تأتى أهمية دراسة هذه العناصر فى أسلوب الإمام السيوطى فى مقامة الرياحين ، وتناولها بالنقد والتحليل ، لاسيما تلك الظواهر الأسلوبية التى توافت ، ووجدت لها فى فن المقامة سهلاً رحباً وأرضاً خصبة .

وعلى الجملة يمكن القول : إن أسلوب الإمام السيوطى فى مقامته " الوردية " اتسم بالطرافة وحسن العرض ، وسهولة السرد وبراعة الاستطراد ، دون إغراب

---

(١) " الأسلوبية والأسلوب " – د. عبد السلام المسدى ص ٨٣ – ط الدار العربية للكتاب تونس – الثالثة – دون تاريخ .

فى اللفظ[١] ، أو إغراق فى المعنى حيث كانت ثقافة الإمام الواسعة ركيزة أساسية فى مداد أفكاره المتصلة ، فهو يلملم أفكار موضوعه ليجعل منها فكرة واحدة يلح عليها بما أوتى من براعة الأسلوب .

ويأتى هنا اختيار بعض ظواهر الأسلوب ليس فقط لكونها الأكثر وضوحاً فى أسلوب الإمام فى مقامته ، ولكن لدورها البالغ فى الدلالة على معانى النص .

أولاً : السجع والازدواج [٢]:

عاب كثير من النقاد على من يُعملون التأليف بين الأصوات والمزاوجة بين الكلمات ، والمجانسة بين الفواصل ، وهو ما يُعرف بالسجع والازدواج ، لما فيهما من دلالة الصنعة المحكمة ، على الرغم من أنهما ركيزتان من ركائز النثر العربى المأثور وفيهما جمال حين يحسن استخدامهما ، كما أنهما دليلا طبع الأسلوب وأصالته[٣] .

وقد حفل أسلوب الإمام السيوطى فى مقاماته لا سيما المقامة الوردية بالسجع والازدواج إلى حد طال نص المقامة كلها ، وجعل كل سطر فيها يصح أن يكون مثالاً لهذه الظاهرة ، وذلك بين ما حسن لفظه ومعناه ووقعه الموسيقى فى بعض الجمل ، وبين ما بدا مصنوعاً متكلفاً فى البعض الآخر .

ولعل مما جاء مسجوعاً وحسن لفظه ومعناه قول الإمام فى بداية مقامته – بلسان راويها – يصف الحديقة التى دارت فيها المناظرة بين الرياحين ، يقول : " مررت يوماً على حديقة خضرة نضرة أنيقة ، طلولها وديقة ، وأغصانها وريقة ، وكوكبها أبدى بريقةُ ، ذات ألوان وأفنان ، وأكمام وأكنان ، وإذا بها أزرار الأزهار مجتمعة ، وأنوار الأنوار ملتمعة ، وعلى منابر الأغصان أكابر الأزاهر ، والصَّبا

---

(١) يستثنى من ذلك بعض الألفاظ الغامضة التى ترد فى نص المقامة ، وتحتاج فى بيان معناها الرجوع إلى المعجمات العربية .

(٢) اعتمدت في ترتيب هذه الظواهر الأكثر شيوعاً في أسلوب الإمام .

(٣) ينظر : " كتب وشخصيات " – د/ سيد قطب – ص ٢٨٩ – ط دار الشروق ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

يضرب على رؤوسها من الأوراق الخضر بالمزاهر ، فقلت لبعض من عَبَر : ألا تحدثوني ما الخبر ؟ ... "[١] .

طالت فى هذا النص بعض الفِقَر ، وتساوت بعضها ، وسكَنَ الحرف الأخير فى بعضها وتحرك فى البعض الآخر ، إلاَّ أن السجع والازدواج بدا واضحاً بالمزاوجة بين الكلمات والمجانسة بين الفواصل ، كما بدت أيضاً رشاقة الألفاظ وخدمتها للمعانى ، ومن ثمَّ جاء السجع فى النص حلية ظاهرة .

أما ما كان – فى النص – من سجع بدا فيه أسلوب الإمام مصنوعاً ومتكلّفاً فمنه قوله بلسان زهر الريحان يخاطب زهر "الآس" : " يا آس : لأجرحنَّك جرحاً ماله من آس ، ألم يرد فيك من طرق الأئمة الأعلام ، عن النبى عليه أفضل الصلاة والسلام : أنه نهى عن التخلل بك لأنك تحرك عروق الجزام ، قال الشاعر :

إذا قالت حزامُ فصدِّقوهَا فإنَّ القولَ ما قالتْ حزام"[٢]

فبيت الشعر ليس له كبير معنى فى النص ، ولا داعى لحثِّ المتلقى على التصديق لأن القول منسوب للنبى – صلى الله عليه وسلم – ، والحث على الأخذ بما جاء فى الحديث أوْلى ، وإنما جئ بالبيت للمجانسة اللفظية بين قافيته فى كلمة " حزام " وبين كلمة " الجزام " قبلها ، فالبيت مستدعى لتحقق السجع ، ولا تخفى دلالة ذلك على الإيقاع .

ومما تكلَّف فيه الإمام أيضاً صنعة الأسلوب ، والحرص على استدعاء ألفاظ ليس لها كبير معنى ، وإنما لملاءمة الشكل المطلوب والمجانسة اللفظية " ما جاء فى قوله بلسان زهر البنفسج :

---

(١) " مقامات السيوطى " – ص ٤٣٢ .

(٢) " مقامات السيوطى " – ص ٤٦٧ .

" وأنا مع ذلك حَسَنُ الفال ، بديع الجمال ، من رآنى آذن بالانشراح ، وتفاءل بالانفساح ، أما سمعت قول من باحَ وصاح "[1] ؟ ثم ذكر الإمام شعراً لعبد الله المكيالى ، وقد بدا فى النص زيادة كلمتى " باح وصاح " اللتين لم يضيفا للمعنى ، كما أنَّ الشاعر لم يُعرف بهما ، وإنما أُتِى بهما للمجانسة اللفظية مع ما قبلهما ، ولتمام السجع الذى لم يشأ ينفك عن النص ، وغير خفى أن ذلك حين يكون مناسباً لأسلوب الإمام فى فن المقامة إلا أنه يكون جنوحاً بالأسلوب من وادى الإبداع الفسيح إلى محط الأدب المصنوع .

ثانياً : الاستشهاد :

يعد الاستشهاد من أهم ظواهر التفاعل النَّصِّى جلاءً ووضوحاً فى اللفظ ، وغنىً ورواءً فى المعنى ، وهو من أكثر ظواهر الأسلوب وروداً فى مقامات السيوطى ، لا سيَّما فى مقامته " الوردية " ، وكأنه حين يريد صياغة رأى أو فكرة تستدعى ذاكرته ما تكنُّه من النصوص بما يتفق مع هذه الفكرة ، فيؤيدها بتلقائية ، ونزعة فطرية تضفى على النص كبير المعانى .

وقد استشهد الإمام فى مقامته بالنص القرآنى ، والحديث النبوى ، والشعر ، والأثر ، وربما كل ما صحَّ به الاستشهاد ، حيث اعتاد أن يؤيد أفكاره بالاستدلال ، يدعمه فى ذلك موسوعيته وثقافته ، وقراءاته المتعددة .

وجاءت أكثر استشهاداته فى المقامة شعراً ، حيث بلغت سبعة وعشرين موضعاً بستة وستين بيتاً ، لأكثر من عشرين شاعراً فى مقدمتهم ابن الرومى الذى تكرر استشهاد الإمام بشعره حتى لَيُمكن القول : إن ابن الرومى من أكثر الشعراء كتابة فى الورد ، وذِكراً للرياحين ، ويليه فى ذلك " ابن الوردى " الذى يبدو أنه كان سَمِيَّ اسمِه ، وله منه وافر نصيب .

---

(١) المرجع نفسه – ص ٤٥٧ .

ومن استشهاد الإمام فى مقامته " الوردية " بشعر ابن الرومى قوله – بلسان زهر النرجس يخاطب " الورد " : " ويكفيك قول ابن الرومى فيك :

يا مادح الورد لا ينفك من غلَطه ألستَ تنظرهُ فى كفِّ ملتقطِه"

ومنه أيضاً حديثه بلسان زهر النرجس يقول : " ولقد أحسن ابن الرومى حيث قال ، مبيناً فضلى بكل حال :

أيها المحتج للـ ـزور د بـ ـزورٍ ومحـ ـال

ذهب النرجس بالفضـ ـلِ فأنصِفْ فى المقال"

وحُقَّ للإمام هذا الاستشهاد ، ولزهر النرجس أن يفخر على أقرانه بهذه الأبيات ؛ فليس أدل من شعر ابن الرومى فى وصفه حين يكون الفخار .

أما استشهادِ الإمام بشعر ابن الوردى ، فمنه قوله : " ويكفى فى وردى قول ابن الوردى :

تجادلنا : أماءُ الزهر أذكى أم الخلّافُ أم ورق القطافِ

وعُقْبَى ذلك الجدلِ اصطلحنا وقد وقع الوفاق على الخلافِ

ويلى استشهاد الإمام فى مقامته بالشعر استشهاده وتأثره بالحديث النبوى ، ولا أدل على تأثره بالحديث من بدايته لمقامته بقوله بلسان راويها : " حدثنا " ، وهى صيغة ذائعة لدى المحدِّثين ، وقد بلغ الاستشهاد بالحديث النبوى فى المقامة عشر مرات بين ما كان فى هذه الأحاديث فى أعلى درجات الصحة بذكره فى صحيح البخارى وبين ما ذُكِر فى غيره من كتب الحديث .

ومن استشهاده بالحديث فى المقامة قوله بلسان زهر " الريحان " يفخر على أقرانه : " وقد ورد فى الصحيحين عن سيد بنى كنانه : " مثلُ الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانه "[1] ، ومنه أيضاً قوله بلسان القاضى الذى حكم بين الزهور : " وقد روى الترمذى وأبو نعيم عن سلمى – رضى الله عنها – قالت : ما كان

---

(١) سبق تخريجه ص١١٣٥.

برسول الله – صلى الله عليه وسلم – قرحة ولا نكبة إلاَّ أمرني أن أضع عليها الحنَّاء "[١] .

وغير خفي ما يضفيه حديث النبي – صلى الله عليه وسلم – على المعنى تأكيداً وتفخيماً ، غير أن ما يؤخذ على الإمام في ذلك هو تضمينه نص مقامته بعض أحاديث حكم الإجماع بوضعها ، وعدم صحة نسبتها للنبي – صلى الله عليه وسلم [٢] .

كما كثُر استشهاد الإمام في مقامته " الوردية " بالقرآن الكريم ، حيث جاء في خمسة مواضع ، منها ما ضمه قوله بلسان زهر الريحان يفاخر أقرانه : " ومع هذا فأنا المنوَّه باسمي في القرآن في قوله تعالى : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾[٣] .... " ، ومن ذلك أيضاً قوله في نهاية المقامة بلسان الزهور جميعاً بعد أن رضوا بالحكم لغيرهم : ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴾[٤]، وقد بدا واضحاً ما يضفيه النص القرآني على المعنى من توكيد ، وعلى جملة النص من بهاء وتسديد .

وكذلك تعدد " الاستشهاد " في المقامة بالأثر ، واستدعته ذاكرة صاحبها في أربعة مواضع تقوية للمعنى وتأكيداً ، ومن ذلك قوله بلسان زهر النرجس : " ولهذا قال فيَّ كسرى أنوشروان : النرجس ياقوت أصفر بين درٍّ أبيض ، على زمرد

---

(١) ورد في " عارضة الأحوزي بشرح صحيح الترمذي " – لابن عربي – ٨ : ٢١١ – ط دار الكتب العلمية – الأولى ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م .

(٢) يجدر ذكر أن الإمام السيوطي نفسه حكم – في كتب أخرى – بأنها أحاديث موضوعة ، ومن هذه الأحاديث ، ما جاء بلسان زهر الورد : عن أنس " الورد الأحمر خُلق من عرقي ليلة المعراج " ومنه أيضاً ما جاء في البنفسج : " إن فضل البنفسج على سائر الأدهان كفضل الإسلام على سائر الأديان " ، وهي أحاديث موضوعة ، ولم تصح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وقد سبق تخريجها وبيان كل منها في موضعه من هذه الدراسة .

(٣) من الآية ٨٩ سورة الواقعة .

(٤) من الآية ١٠٦ سورة المائدة .

أخضر .." ، وكذلك استشهاده بلسان زهر البنفسج يحتج بقول الإمام الشافعى: " لم أر للوباء أنفع من البنفسج يُدهَن به ويُشرب " .

وعلى ذلك يمكن الحكم بميل أسلوب الإمام السيوطى فى مقامته إلى دعم سرده للمعانى والأفكار بكثير من النصوص والآثار التى تكنها ذاكرته – على سبيل الاستشهاد – تدليلاً على صدق هذه الأفكار ، وتقوية لمعانيها .

ثالثاً : الاقتباس والتضمين :

الاقتباس هو : " أن يضمن الأديب كلامه شيئاً من القرآن الكريم ، أو الحديث النبوى ، أو أشعار العرب ، تفخيماً لشأنه وتزييناً لسبكه على وجهٍ لا يُشعر بأنه منه "[١] .

وهو بهذا المعنى يعد من ظواهر أسلوب الإمام السيوطى فى مقامته ، وهو ظاهرة تُحمد لصاحبها ، فألفاظ النصوص لا سيما القرآن الكريم والحديث النبوى حين تضاف إلى غيرها تضئ لفظها وتثرى معناها ، ولاشك أن أكثر ما أسهم فى تمكن هذه الظاهرة من أسلوب الإمام هو ما اشتهر به من قراءات متعددة ، وكتابات وفيرة .

ومن الاقتباس فى المقامة قول الإمام : " فلما سمعت الرياحين هذه الأحاديث فى فضل الفاغية ، أطرقوا رؤوسهم خاشعين ، وظلت أعناقهم لها خاضعين ، وقالوا لقد كنَّا قبل فى غفلة عن هذا إنا كنَّا ظالمين ... " ، وغير خفى ما فيه من تفاعل نصى واقتباس مع قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾[٢] .

ومن ذلك أيضاً قوله بلسان الزهور تخاطب القاضى : " يا عالم البسيطة ما بين طولها والعرض ، إنا أخصام بغى بعضنا على بعض ..." ، فقد وضح تفاعله

---

(١) " علوم البلاغة " – أحمد مصطفى المراغى – ص ٣٨٢ – ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م .

(٢) من الآية ٩٧ سورة " الأنبياء " .

النصِّى واقتباسه من قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾[١] .

ففى المثالين استلهم الإمام النص القرآنى مقتبساً دون أن يشعرنا أنه منه ، وكأنها عملية تلاقح فكرى بين الفكرة المرادة فى النص ، وما تحمله ذاكرة صاحبه من مخزون أدبى حين يدخل على النص يكسب ألفاظه ضياءً وبهاء ، ويمنح معانيه غنىً ورواء .

رابعاً : التكرار :

يعد التكرار أحد الوسائل اللغوية التى يمكن أن تؤدى دوراً تعبيرياً واضحاً وهو أيضاً أحد الوسائل التى تسهم فى الدلالة ، ذلك " أن تكرار لفظة أو جملة بعينها يوحى بسيطرة هذا المكرر على فكر الأديب وشعوره ، ومن ثم لا يفتأ ينبثق فى أفق رؤياه من لحظة لأخرى "[٢] ، وكأنه يضع فى أيدينا مفتاحاً للفكرة المتسلطة على ذهنه وذلك فضلاً عما أسهمه التكرار فى موسيقا النص ، فهو أحد أنماط التوقيع الصوتى التى تضفى على الألفاظ لوناً خاصاً من الإيقاع .

وأكثر ما يعتريه التكرار فى أسلوب الإمام فى مقامته هو الحديث عن الأدوية والأدواء والفوائد الطبية الذى تكررت ألفاظه كثيراً ، حتى لتعدّ مقامة الرياحين معرضاً جامعاً لفوائد النباتات الطبية ، و " مستشفى " كبيراً لعلاج العديد من الأسقام .

وقد كثر تكرار هذه الألفاظ حتى ليذكر الإمام بعضها مع الحديث عن كل لون من الزهور التسع المتخاصمة ، على أن هذا التكرار قد لا يحسن لا سيما حين يكون فى الموضع ذاته وقبل الانتقال بالحديث إلى لون آخر من الزهور ، مثل تكرار

---

(١) من الآية ٢٢ سورة " ص " .

(٢) " بناء القصيدة العربية الحديثة " – د. عشرى على زايد – ص ٨٥ – ط مكتبة ابن سينا القاهرة – الرابعة ٢٠٠٢م .

كلمة " الأعضاء " فى قول الإمام بلسان الورد يصف فوائده الطبية : " أُسَكِّن حرارة الصفراء ، وأُقوِّى الباطن من الأعضاء ..... وأُقوِّى الأعضاء أنا ومائى ودُهنى كيف شاء ... " ، فهو تكرار لا يضيف سوى تكلف السجع وركاكة الأسلوب .

أما ما يحسن فيه النداء فى المقامة فمنه أسلوب " النداء " ، وقد تكرر فى عدة مواضع ، منها قول الإمام بلسان جماعة الزهور تنادى القاضى : " أيها الإمام : يا فريد الأرض ، يا عالم البسيطة ما بين طولها والعرض " ، فلعل الزهور أرادت بهذا التكرا تأكيد النداء وأن تصل بالمنادَى إلى مكانة بعيدة الرفعة والسؤدد ، وربما أرادت الزهور بتكرار النداء أن تبلغ بنداءاتها أقصى غاية ، فيسمع الجميع أصواتها .

ومما كثر تكراره فى المقامة أسلوب الاستدراك " بلكن " بعدها ضمير المتكلم " أنا " ، فبعد أن يتوجه كلٌّ لون من الزهور بالحديث هجوماً على سابقه يستدرك " بلكنَّ " ، ويبدأ الحديث عن نفسه بضمير المتكلم ، كقول زهر " البنفسج " بعد تفنيده حجة " النسرين " : " ولكن أنا اللطيف الذات ، البديع الصفات " ، وقول زهر " البان " بعد تفنيده حجة " الياسمين " : " ولكن أنا ذو الاسمين ، والظاهر من الأصل والفرع بالقسمين .... " ، على ما يفيده الاستدراك من معنى الإضراب عن المعانى السابقة ، وتأكيد المعانى اللاحقة ، وتنبيه المخاطب لها .

ويجدر القول : أن بعض الألفاظ والصيغ كثر تكرارها فى أسلوب الإمام فى مقامته ، مثل تكرار ضمير الذات " أنا " ، والفعل بصيغة " أفعل " ، وبدا أن دافعه إلى ذلك غرض المفاخرة بين الزهور ، لكن هذا التكرار لم يصل إلى حد " اللازمات اللفظية التى قد تستبد بأسلوب بعض الأدباء ، فتلازمه وتصدر عنه دون إرادة أو شعور ، فتوحى لمتتبع الأسلوب أنها تتنافى مع ما تفيد اللغة من التنوع والتجديد .

وعلى ذلك يمكن القول بتأرجح التكرار فى أسلوب الإمام فى مقامه الرياحين بين ما يحسن تكراره ، وما لا يحسن ، ومَردُّ ذلك لموقع المكرر من السياق ، ومدى إفادته للمعنى الذى يؤديه ، فحين يأتى اللفظ المكرر دون إضافة للمعنى فإنه يعيب الأسلوب ، ويباعد بين نص المقامة وبين الإبداع ، وحين يتكرر اللفظ لزيادة معنى أو بلوغ إيقاع فإنه يكون ميزة أسلوبية .

خامساً : الإحالة والإيحاء :

من أشكال التعبير التى يتضح معناها بعد بحث أو تأويل[١] ، وفيها يحيل الأديب القارئَ إلى معنىً يشير إليه دون التصريح به ، والإحالة بهذه الصورة فيها من معنى " الرمز " ، حيث اشتراك وحدتين أو أكثر فى معنى مباشر يوضحه التأويل[٢] .

وقد وجدت " الإحالة " لها فى أسلوب الإمام أرضاً خصبة لا سيما فى مقامة الرياحين ، ومن ذلك ورودها مرات ثلاث فى موضع واحد ، فى قوله بلسان " الورد " يفخر على سائر الزهور : " وقد حماني أمير المؤمنين المتوكل ، كما حمى الشقائق النعمان ، وهذا تقليد من الخلافة بالملك على سائر الريحان ، ولى من بينهم ابنٌ يخلفنى فى الحكم إذا غبت طول الزمان .... " .

فهو يشير فى قوله " حماني أمير المؤمنين المتوكل " إلى ما أُثِر عن الخليفة المتوكل قوله : " أنا ملِكُ السلاطين ، والورد ملك الرياحين ، وكل مِنَّا أوْلى بصاحبه " ، وما أُثِر أنه كان يمنع الورد من الناس ، ويستبدّ به لنفسه ، ويرى أنه لا يصح للعامة[٣] .

وكذلك قول الإمام " كما حمى الشقائق النعمان " فهو يحيل القارئ إلى ما جاء فى التاريخ : أن الملك النعمان حمى أرضاً نبت فيها نوْرٌ أحمر يسمَّى " الشقائق " استحسنه وأمر بحمايته[٤] .

أما قوله : " ولى من بينهم ابن يخلفنى فى الحكم إذا غبت " ففيه إشارة وإحالة إلى الخليفة " المنتصر بالله " الذى خلف والده المتوكل فى إمارة المؤمنين[٥] .

---

(١) ينظر : " الكتابة والوجود " – لعبد القادر الشاوى – ص١٣ – ط أفريقيا والشرق المغرب ٢٠٠٠م .

(٢) ينظر : المرجع نفسه ص ١٤ .

(٣) ينظر : " حسن المحاضرة " – ص ٢١٧ .

(٤) ينظر : " لسان العرب ١٨١/١٠ .

(٥) سبق تحقيق هذه الأخبار والتعليق عليها فى هذه الدراسة ص ١١٠٠

ولعل من الإحالة أيضاً ما جاء فى غير مرة فى المقامة من إحالة القارئ إلى فهم معنى فن " التصحيف " فى اللغة ، وكأنه معروف بداهةً ، كما جاء فى قوله بلسان زهر البنفسج شعراً :

يا مهدياً لى بنفسجاً أرجاً ... يرتاح صدرى له وينشرحُ

بشَّرنى عاجلاً مصحَّفُه ... بأن ضيق الأمور ينفسح

فى إشارة إلى ما بين كلمة " بنفسج " وكلمة " ينفسح " من تشابه فى الحروف إلى حد نطق كل منهما مكان الأخرى مع تبديل نقاط الحروف ، وهذا هو معنى التصحيف .

وربما من الإحالة أيضاً ما جاء فى بداية المقامة قول الإمام السيوطى بلسان راويها : " حدثنا الريَّان عن أبى الريحان ، عن أبى الورد أبان " ، فلعله فى طرافة أراد الإشارة إلى الراوى " أبان بن عثمان "[1] أحد حُفَّاظ الحديث النبوى ، ليكسب رواية مقامته وموضوعها قوة وجلالاً .

أما " الرمز " في المقامة فلا أدل عليه مما ذكره الدكتور سمير الدروبي : أن الإمام السيوطي قدَّم في مقاماته – لاسيّما هذه المقامة – صورة تفصيلية عن الحياة السياسية والأحداث التاريخية في عصره ، وأن مقاماته جاءت إيماءات وإشارات دالة على تنازع الحكم في هذا العصر وما يكتنف الإمام من مشاعر الألم والإحساس بالغربة عن المجتمع الذي يتطول فيه الأصاغر ، ويتوارى أصحاب الأمر .

---

(١) أبان بن عثمان بن عفان الأموى القرشى . المتوفى سنة ١٥٠هـ – ٧٢٣م ، أول من كتب في السيرة النبويّة. وهو ابن الخليفة عثمان. مولده ووفاته في المدينة .شارك في وقعة الجمل مع عائشة. وتقدم عند خلفاء بني أمية فولي إمارة المدينة سنة ٧٦ إلى ٨٣ وكان من رواة الحديث الثقات، ومن فقهاء المدينة أهل الفتوى. ودوّن ما سمع من أخبار السيرة النبويّة والمغازي، وسلمها إلى سليمان بن عبد الملك في حجة سنة ٨٢ فأتلفها سليمان. وكانت فيه دعابة أورد صاحب الأغاني حكايات منها(ينظر: الأعلام ٢٧/١) .

فهو يرمز بزهر " الفاغية " إلى نفسه محاولاً إنصافها ، ويرمز بالزهور المتخاصمة إلى الساسة الذين يستبدون بالحكم [١].

ورأيت أن يسلم هذا الرأي لصاحبه من عدة وجوه ، أولها : كثير من مفردات وتراكيب المقامة مثل " ملك ، ومجلس ،وعرش ومنابر ، وأكبر ، وعساكر ، وخلافة ، وسلاطين " وغيرها ، من الألفاظ التي تنطق بتمدد الدلالة وثنائية المضمون ، وإرادة ما هو أبعد من عالم الزهور .

وثانيها : ما جاء في ترجمة الإمام السيوطي من التحزب ضده وتصادماته التي طالت حياتيه العملية والعلمية ، فلعل ذلك كان سبباً كافياً لاختيار العزلة ، وإرادة التعبير بالرمز حرصاً على تجنب الأذى .

ثالثاً : ملاءمة هذا التعبير لما يتمتع به الإمام من ملكات معرفية ، ونزعات أدبية ، ودهاء فني يكون معه التلميح أبلغ من التصريح .

وعلى الرغم من أصالة نسبة هذا الشكل التعبيري للأدب العربي إلا أن هذه الإحالات والإشارات قد تحسن فى موضع ، وقد لا تحسن فى آخر، لا سيَّما حين يُحال القارئ إلى وقائع تاريخية ثقة من الأديب فى بداهة معرفتها ، فى حين أنها غير معلومة لدى كثيرين .

سادساً : الجناس :

حقيقته أن يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً ، وسمي مجانساً لأن حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد[٢] .

وللجناس دور بديع فى إثراء الدلالة ، وخلق الدهشة ، وشحن الإيقاع بإيحاءات صوتيه خاصة ، وهو بهذا المعنى ميزة أسلوبية للإمام السيوطى فى مقاماته

---

(١) "مقامات السيوطي " – د/ سمير الدروبي – ص٣٥ – مرجع سابق .

(٢) ينظر : " المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر " لضياء الدين ابن الأثير – جـ ١ – ص ٢٦٢ – ط دار نهضة مصر – القاهرة ١٩٧٣م .

لاسيَّما مقامته " الوردية " ، والجناس التام الذى تتكرر فيه اللفظة بجميع حروفها مع اختلاف المعنى .

ومنه قوله – بلسان زهر " الريحان " يخاطب زهـــر " الآس " : " يـــا آس لأجرحنَّك جرحاً ما له آس " ، فكلمة " آس " الثانية من " أسا الجرح بمعنى أصلحه ، وأسا المريض : داواه "[1] ، وقد بدا ما أفاده تجانس اللفظتين مـــن بنـــاء صـــوتى يكسب النص نغماً وجمالاً .

ومن ذلك أيضاً قوله بلسان جماعة الزهور تخاطب القاضـــى : " يـــا عـــالِم البسيطة ما بين طولها والعرض .... فانظر فى حالنا ليكون ذلك ذخيرة لـــك يـــوم العرض " ، فكلمة " العرض " الأولى بمعنى : ضد الطول ، والثانية بمعنى : يوم القيامة ، وبعيداً عمَّا أفاده تجانس اللفظتين فى صورة الإيقاع والتشكيل الصوتى يمكن بقدر من التأمُّل الكشف عن إيحاءات غنية لهذا التجانس من جهة المعنى ، منها – مـــثلاً – معنى امتداد علم ذلك القاضى ليشمل معارف الأرض ، وتجانسه مع جزاء ذلك العلم وثوابه الذى يُبلِّغُه امتداداً آخر أكثر اتساعاً ورحابة يوم القيامة .

وقريب من هذه الصورة ما جاء من جناس فى قول الإمام بلسان زهر الورد : " ويكفى فى وردى قول ابن الوردى " ، فقد أضفى التجانس على النص تناغمـــاً موسيقياً يجسد التشابه بين اسم الشاعر " ابن الوردى " والغرض الذى يكتب فيـــه وهو " الورد " ، وكأنه بعض منه .

أما صور الجناس الناقص – تشابه بعض حروف الألفاظ – فكثير فى أسلوب الإمام فى مقامته " الوردية " بحيث لا يخلو منه السطر أو الـــسطرين ، ولا شـــك أن سَعْيَ الإمام وراء صور السجع فى مقاماته هو أهم أسباب هذه الكثرة .

ومن هذه الصور قوله بلسان زهر " الياسمين " يخاطب " النرجس " : " لقد تجبست يا جبسُ ، وأكثرك رجس نجسُ " ، وغير خفى ما أفاده التجنـــيس فى هـــذه

---

(١) لسان العرب – مادة أسا – ٣٤/١٤ .

الصورة من زخرف لفظى وإيقاع صوتى ، لكن النصفة تقتضى القول أن الجناس أبعدُ من كونه محسناً لفظياً ، وربما عنى الإمام عبد القاهر الجرجانى[١] هذا حين قال : " إن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى ، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به ، وذلك أن المعانى لا تدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خدم المعانى والمتصرفة فى حكمها "[٢] .

سابعاً : الطباق :

ليس الطباق مجرد تحسين معنوى فحسب ، وإنما هو تعبير فنى يمتزج فيه المعنى باللفظ[٣] ، ويتحقق حين يعمد الأديب إلى رسم صورة جميلة ومعبرة بالجمع بين اللفظ وضده فى نسق جميل من الصياغة[٤] .

والطباق بهذا المعنى تحقق كثيراً فى مقامة " الرياحين " ، حتى ليَعدّ لدى صاحبها ظاهرة أسلوبية ، ومن ذلك ما جاء فى قوله بلسان " النرجس " يخاطب الورد : " إن قلتَ إنك النافع فى العلاج فكم لك فى منهاج الطب من هاج ، ألست الضار للمذكوم ؟ " .

فقد بدا ما أفاده تضاد لفظتى " النافع " ، و " الضار " من إحساسٍ باتساع المفارقة واختلاف الحالين بين النفع والضر ، وكأن ثقلاً سقط من شاهق واستقرَّ على الأرض .

---

(١) " عبد القاهر الجرجانى " : (.... – ٤٧١هـ / ....– ١٠٧٨م) عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى ، واضع أصول البلاغة " كان من أئمة اللغة ، من أهل جرجان (بين طبرشان وخراسان ، له شعر رقيق ، من كتبه : أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز . (الأعلام ٤٨/٤) .

(٢) " أسرار البلاغة " – للإمام عبد القاهر الجرجانى ، شرح د/ محمد عبد المنعم خفاجى ص٧٦ ط مكتبة الإيمان – دون تاريخ .

(٣) ينظر : " دراسات فى المعانى والبديع " – د. عبد الفتاح عثمان – ص ٢٠٣ – ط مكتبة الشباب – القاهرة ١٩٨٣م .

(٤) ينظر : " مفهوم الخيال ووظيفته فى النقد القديم " – د. فاطمة سعيد حمدان – ص ٣٧٤ ط مكتبة مكة المكرمة – جامعة أم القرى ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م .

ولاشك أن هذا معنى مراد لدى زهر النرجس فى هجومه على الورد ، وربما يدل لذلك قوله : " لقد تجاوزت الحد يا ورد ، وزعمت أنك جمع فى فـــرد ، فهـــى صورة أخرى للطباق بين كلمتى " جمع "، و "فرد" تدعم الصورة الهجائية وبُعْد الهوَّة بين المعنيين .

ومن صور " الطباق " فى المقامة أيضاً قول الإمام بلسان زهر البان يهاجم " الياسمين " مفنداً فوائده الطبية : " وإذا سُحق اليابس منك ورُضَّ ، وذرَّ على الشعر الأسود ابيضَّ " فهو لون من الطباق بين الألوان يسميه البلاغيون " تدبيجاً "[١] .

وقد بدا ما أفادته هذه الصورة للمعنى من تكثيف الدلالة على الفارق بـــين الحالين سواد الشَّعر فيكون النبات نافعاً ، وبياضه فيكون النبات ضارًّاً ، وهذا كلـــه بخلاف ما نراه فى هذه الأمثلة من فائدة عامة لجميع صور الطباق تكمن فيما تكسبه كل لفظة من الكلمتين المتضادتين أختها من جمال وبهاء .

وتفيةً لهذه الظواهر في أسلوب الأمام في مقامته – بما ضمت مـــن دراســـة السجع والازدواج ، والتجنيس ، والطباق – لعل من النصفة يجدر القول : إن بعض النقاد قصر ظلماً دور المحسنات البديعية على التحسين والتزويق ، ولم يعولوا على ما تحتها من مضمون ومعنى ،وقسموها إلى محسنات لفظية وأخرى معنوية ، وجعلوها في ذيل علوم البلاغة .

والحق إننا لانجد تجنيساً مقبولاً، ولا سجعاً حسناً أو ازدواجاً مستحسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه .

ويؤيد ذلك قول الإمام عبد القاهر الجرجاني : " أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتذابه، وتأهب لطلبه ، أو ما هو لحسن ملاءمته "[٢].

---

(١) التدبيج : أن يذكر فى معنى المدح أو غيره ألوان متقابلة بقصد الكناية ، ينظر : (بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح – عبد المتعال الصعيدى – جـــ٤ – ص٩ – ط مكتبة الآداب – دون تاريخ) .

(٢) " أسرار البلاغة "– للإمام عبد القاهر الجرجاني – قرأه وعلق عليه :محمود محمد شاكر – ص١١ –ط مطبعةالمدني بالقاهرة – دون تاريخ .

ثم قال بعد أن ساق مثلاً للسجع المستحسن : "تبيَّن من هذه الجملة أن المعنى المقتضي اختصاص هذا النحو بالقبول هو : أن المتكلم لم يقُدْ المعنى نحو التجنيس والسجع والسجع بل قاده المعنى إليهما ، وعبر به الفرق إليهما "[١] .

وإذا كان " هذا الحكم – بتعدي ألوان البديع جانب التحسين إلى التكوين والسبك – لازماً للسجع والجناس ، وهما عمادا المحسنات اللفظية ظن فهو بغيرهما من المحسنات المعنوية أوجب وألزم " [٢].

والإمام محمد بن علي الجرجاني[٣] يرد التحسين في البديع إلى أمرين ، أولهما نسبة بعض أجزاء الكلام إلى بعض بغير الإسناد ولا يخلو لون بديعي من هذه النسبة ، لأن ألوان البديع ذات خاصية ازدوجية ، فكل طرف يقتضي أخاه .

وثانيهما : رعاية الأسباب التي تقتضيها كل وجوه البلاغة ، وهذان الأمران هما ما عناهما الجرجاني في تعريفه البديع بقوله : " علم يُعرف منه وجوه تحسين الكلام باعتبار نسبة بعض أجزائه إلى بعض بغير الإسناد والتعليق ، مع رعاية أسباب البلاغة " [٤].

ثامناً : التصوير الفني :

كانت الصورة ومازالت هي " سر عبقرية الأديب ، وخلطته السرية ، وهي جوهر التعبير الجمالي وقوام اللغة الفنية " ، ذلك أنه لا يتم جانب الابتكار والإدهاش

---

(١) " أسرار البلاغة "– للإمام عبد القاهر الجرجاني — ص١٤.

(٢) " الصبغ البديعي في اللغة العربية "– د /أحمد إبراهيم موسى – ص ١٠٣– ط دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٨هـ –١٩٦٩ م .

(٣) الجرجاني :محمد بن علي بن محمد بن علي ، نور الدين ابن الشريف الجرجاني : من أهل شيراز صنف في النحو ، وله رسالة في المنطق ، وله " الرشاد في شرح الإرشاد " ، وتوفي ١٤٣٤م (ينظر : "الأعلام " ٦/ ٢٨٨).

(٤) " الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة "– لمحمد بن علي الجرجاني – تحقيق : عبد القادر حسين – ص٢٥٧– ط دار نهضة مصر للطبع والنشر.

فى الأدب إلا عن طريق الصورة المتألقة التى يمكن أن تجذب عقل المتلقى وإحساسه ، وتمكنه من معايشة النص الأدبى ، بعد أن تجسِّد أمامه الفكرة ، فيراها حية متحركة .

وعلى ذلك يمكن القول : إن الإمام السيوطى ضمَّن مقامة " الرياحين " كثيراً من الصور الفنية ، سواء أكانت هذه الصور تعبيرية واقعية أم تتصل بالخيال .

ومن هذه الصور قوله بلسان راوى المقامة عن شجر الحناء : " وأنا القائل فيه ، أوصله حقه وأوفِّيه :

كأنَّما دوحةُ الحنَّاءِ إذْ فُتحت ... أنوارُها وبَدَتْ فى عينِ مُرتقبِ

عروس حسن تجلت فى غلائلها ... خضراً وقد حُلِّيت باللؤلؤ الرطبِ "[1]

فهو يُشَبِّه شجرة الحناء بفروعها الممتدة وأزهارها المشرقة بعروس حسناء رقيقة فى أثواب خضراء مرصعة باللآلئ ، والتشبيه هنا فضلاً عما يجلبه من متعة أدبية هو أيضاً ينقل القارئ من صور قريبة يعرفها إلى صور بعيدة لم تكن فى خَلَدِه .

ومن هذه الصور أيضاً تلك التى جاءت بطريق الاستعارة المكنية فى قوله على لسان زهر " النرجس " : " ولكن أنا القائم لله فى الدياجى على ساقى ، والساهر طول الليل فى عبادة ربى فلا تطرف أحداقى .... " .

فهو يصف قَوَامَ زهر النرجس ، وطول ساقه ، مستعيراً لذلك صورة إنسان قائم الليل يصلى لله تعالى ساهراً لا يغمض له جفن ، على ما تفيده الاستعارة من الحيوية والحركة ، وبث النبض الإنسانى ، وهي صورة أكثر قدرة على التعبير .

وقريب من هذه الصورة ما جاء فى المقامة من صور بطريق الكناية ، ومنها قول الإمام بلسان زهر " النرجس " يخاطب الورد : " فاحفظ بالصمت حرمتك ، وإلا أكسر بقائم سيفى شوكتك " ، فقوله " بقائم سيفى " كناية عن طوله وقوامه الممشوق ، فضلاً عن معنى التعريض بقِصَرِ الورد ، ولاشك أنها صورة أبلغ فى تأدية الغرض ، وأقدر على التأثير.

---

(١) " مقامات السيوطى " – ص ٤٧٧ .

الفصل الثانى

مقامة الرياحين وتمام البناء القصصى

المبحث الأول

مقامة الرياحين وعناصر الفن القصصى

توطئة :

عاب بعض النقاد على النقد فى نهاية القرن التاسع عشر مطلع القرن العشرين عدّه القصة عملاً فنياً بحتاً كاللوحة أو القصيدة مقررين أنّ " مما يُشك فيه كثيراً أن تكون غاية القصة إحداث تجاوب فنى – وقد يحدث هذا التجاوب فى مشاهد منها – ولكنها تهدف مع ذلك إلى إرضاء تطلعنا وفضولنا بالنسبة للحياة ، كما ترضى إحساسنا الجمالى .." [١].

ولعل ذلك يتفق مع تعريف القصة بأنها " تعبير فنى ينقل به القاص ما رآه وأحسَّ به لا كما هو فى الواقع الخارجى " ، فهى نقل للمرئى من خلال حوادث تتوالى على نحو مقنع ، و" حكاية مصطنعة تستهدف الاهتمام سواء أكان بتطور حوادثها وغرابتها ، أم بتصويرها للعادات والأخلاق"[٢].

وليست مهمة القاص الذى ينحَى بقصته منحَىً واقعياً أن يعرض من الحوادث ما سبق وقوعه فعلاً ، أو ما ثبتت صحته بالوقائع والمستندات ، ولا من الشخصيات ما هو حقيقى فى الواقع ، ولكن مهمته " نقل القارئ إلى حياة القصة بحيث يتيح له الاندماج التام فى حوادثها ، ويحمله على الاعتراف بصدق التفاعل الذى يحدث بين الشخصيات والحوادث .... "[٣].

وتأسيساً على هذا المفهوم لفن القصة ، ومهمة القاص تكون " مقامة الرياحين " للإمام السيوطى نموذجاً لهما ، بما توافر لها من شروط عامة للقصة ، كونها

---

(١) " الأدب العربى الحديث " – د. محمد عبد المنعم خفاجى – جـ٣ – ص ١٣٥ – ط مكتبة الكليات الأزهرية – دون تاريخ .

(٢) المرجع السابق ص١٣٩.

(٣) " فن القصة " – د. محمد يوسف نجم – ص ١٠ – ط دار صادر بيروت – دون تاريخ .

نثراً ولها راوى ، ويشملها عنوان واحد وبما تمَّ لصاحبها من أدوات هذا الفن وعناصر بنائه يملكها ويقبض عليها يده .

أولاً : الفكرة أو الحادثة :

هى أكثر عناص البناء الفنى للقصة أهمية ، وتتمثل فى : " مجموعة الوقائع الجزئية المترابطة والمنظمة والمسرودة سرداً فنياً ويضمها إطار خاص .... "[١] .

وقد بدا هذا العنصر الفنى فى مقامة الرياحين للسيوطى واضحاً فى مجموعة الوقائع والأحداث الرئيسة التى وردت على لسان راويها ، بدءاً من مروره على الحادثة التى استطرد فى وصفها ثم اجتماع الأزهار واتفاقها على عقد مجلس حافل لاختيار الأحق من بينها – بالجلوس على العرش المأمول لمملكة الزهور .

وتتوالى الأحداث ، وتتنامى فى اطراد ، وتتجه رويداً إلى تكوين " العقدة والحل " ، فى تصاعد فنى للسياق القصصى ، إذ تصعد الزهور المنابر ، ويبدى كل منها حجته وأدلة سبقه وأحقيته ، ولا مانع من طعنه فى الغرماء ، وإذا الأحداث فى تأزم وتشابك دون أن تفقد طرافتها – حتى تنفرج " بالحل " حين توفق الزهور مجتمعة لاختيار قاضٍ عادل يحكم بينها ويقطع النزاع ، ولاشك أن هذا " الحل " هو العنصر الحيوى الذى يجعل القارئ مندمجاً مع الأحداث منتظراً نهايتها .

ثم يأتى حدث النهاية بمشهد الخضوع والمبايعة بالإمارة بعد أن جاء حكم ذلك القاضى لزهرة ليست من بين الزهور المتخاصمة .

ثانياً : الحبكة الفنية :

غير خفى أنَّ تكوين العقدة والحل ، وتنامى الأحداث وتطورها وتلاحم القارئ معها هو مقياس المهارة الفنية ، وجودة العرض ، وقد توافرا فى عرض الإمام السيوطى لأحداث قصة مقامته .

---

(١) " المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين " – د. شكرى محمد عياد ص ٨٢ – ط عالم المعرفة – الكويت ١٩٩٣م .

أما عن " الحبكة الدرامية " أو الإطار الذى يجمع الأحداث فى أى عمل قصصى فَلِتَحَقُّقِه " ثمة صورتين ، الأولى : تدور حول تطور شخصية البطل التى تربط بين العناصر برباط جامع ، والثانية : هى الصورة العضوية التى تتبع تصميماً فنياً تقوم كل حادثة بدور محدد فيه ... "[١] .

وقد اختار الإمام السيوطى لأحداث قصة مقامته الإطار فى صورته الثانية ، حيث توجه توجهاً عضوياً تتجمع معه الأحداث فى ذهنه داخل دائرة كبرى هى عملية المفاخرة والمناظرة بين الزهور ، وإرادة تفضيل " زهرة الفاغية " عليها ، ولم يمنح بطولة مطلقة لأى من شخوص قصة مقامته.

وإذا كانت " الحبكة الفنية لأحداث القصة يمكن تصورها على طريقتين الأولى : " الحبكة المفككة " وتعتمد على الفكرة أو النتيجة أو الشخصية أو البيئة ، والثانية : " الحبكة المتماسكة " التى تعتمد على وحدة العمل القصصى ... "[٢] ، فقد جاءت قصة " مقامة الرياحين " على الطريقة الثانية حيث تسلسل الأحداث وترابطها ، وتواصل سيرها فى خط مستقيم نحو نهايتها وبداية الحدث من حيث انتهاء سابقه .

ولعل أكثر ما بدا ذلك فى تسلسل إبداء كل من الزهور حجته والطعن فى غريمه ، وصولاً إلى مشهد النهاية بالإذعان والمبايعة .

ولا تخفى تماسك الحبكة الفنية لأحداث القصة فى بعث الإثارة وجذب المتلقى لمعايشة الأحداث بوجدانه وعاطفته ، وربما بخياله حين يظن نفسه شخصية من شخوص القصة .

---

(١) " المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين للدكتور شكري محمد عياد " – ص ١٢٨ ، وينظر : " النقد الأدبى الحديث " د. محمد غنيمى هلال – ص ٥١٠ – ط نهضة مصر– يناير ٢٠٠٤م .

(٢) " النقد الأدبى الحديث " – د. محمد غنيمى هلال – ص ٥٢٦ .

ثالثاً : الشخصيات :

لا يسوق القاص أفكاره وأحداث قصته منفصلة عن محيطها الحيوى بل ممثلة فى شخصيات تعيش فى مجتمع ما ، وإلا فقدت هذه الأفكار أثرها وقيمتها الفنيـــة ، " فلا مناص من أن تحيا الأفكار فى الأشخاص ، وتحيا بها الأشخاص وسط مجموعـــة من القيم يظهر فيها الوعى الفردى متفاعلاً مع الوعى العام ، فى مظهر من مظـــاهر التفاعل ... "[١] .

وشخصيات القصة هم الأفراد الذين تدور حولهم الأحداث ، ويقل عددهم أو يكثر طبقاً للنوع القصصى الذى يكتبه القاص الذى يحرص على إبراز جوانـــب الشخصية وتسليط الضوء عليها ، أو يدع شخصيات قصته تعرب عن نفسها مـــن خلال الأحداث[٢].

وشخصيات القصة من حيث التكوين النفسى بين شـــخوص " مـــسطحة " ثابتة تبدو ذات طابع واحد فى سلوكها وانفعالها ، ولا يحـــدث تغـــير فى علاقاتهـــا بالشخصيات الأخرى ، وشخصيات " نامية " متطورة تتكامل جوانبها رويداً مع نمو الأحداث .

وقد تداعت مقامة الرياحين مع هذه الأطر الفنية وكأن الإمام السيوطى قد اطلع على أسس البناء القصصى الحديث قبل كتابتها .

وشخصيات المقامة بلغت عشراً ، تسع من الزهور ، وشخـــصية القاضـــى الذى احتكمن إليه ، ولعل كثرة الشخصيات تتلاءم مع طرافة الموضوع وكثرة أنواع الزهور ، وجنس النبات المتصف بتعدد أنواعه وألوانه.

غير أن هذه الشخصيات من حيث التكوين النفسى " مسطحة ثابتـــة ذات مستوىً واحد ، بسيطة فى صراعها لا يكتنفها تعقيد ، ولا تنفرد إحداها بسيطرة أو

---

(١) " النقد الأدبي الحديث " – د. محمد غنيمى هلال – ص ٥٢٦ .

(٢) ينظر : " المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين للدكتور شكري محمد عياد " – ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

بطولة ، وقد بدا ذلك واضحاً فى ثبات مهمة كل منها وهى المفاخرة على الأقران ، ومحاولة إحراز السبق بذكر الأدلة وحميد الخصال ، وكذا بهجوم كل منها على سابقه بتفنيد حجته وردِّ فوائده .

كما بدت بساطة شخصيات المقامة فى تشابه حجة كل منها بحجج الأخريات،بين صفات شكلية،وفوائد طبية واستدلال بكل ما يصح به الاستشهاد.

وعلى الرغم من أن شخصيات المقامة ليست إنسانية وجاءت على لسان النبات إلا أن الإمام السيوطى بالغ فى الوصف والتصوير وبث النبض الإنسانى وبيان الشكل واللون ، بما يجسد الشخصية ويبرز ملامحها وقسماتها .

ومن ذلك قوله بلسان زهر النرجس : " ولكن أنا القائم لله فى الدياجى على ساقى ، الساهر فى عبادة ربى فلا تطرف أحداقى ألا ترى وسطى لا يزال مشدَّداً ، وسيفى لا يبرح مجرداً ، وأنا المشبه بى عيون الملاح ، وقال فىَّ كسرى أنوشروان : (النرجس ياقوت أصفر ، بين درٍّ أبيض على زمرد أخضر) .... "[1] .

ومن الوصف الشكلى أيضاً والتكوين الجسدى للشخصية قوله بلسان زهر البان : " وأنا القريب من الباز والمضروب بقدِّى المثل فى الاهتزاز ، أزهارى عالية ، وألبست خلعة السنجاب " ، وقوله بلسان زهر الآس يخاطب الريحان : " أتريدُ أن تسود وأنت مشبَّه بهامات العبيد السود " ، وقد وضح من هذه الأمثلة أن الإمام قد نجح فى رسم كل شخصية وميَّزها بما يُشعر بحويتها ، واختار أن يدع شخصيات مقامته تعرب عن نفسها حين أجرى هذه الأوصاف على لسانها .

رابعاً : البيئة " الزمان والمكان " :

تلعب البيئة دوراً رئيساً فى بناء القصة ، فالشخصيات تتحرك فى أبعادها ، والأحداث تنمو من خلالها ، وتتم الحبكة الفنية بواسطتها ، " وليست أحداث القصة معزولة عن مجالها الطبيعى والاجتماعى ، والأشخاص " يستلزم تصوير مواقفهم أن

---

(١) " مقامات السيوطى " – ص ٤٣٨ .

يُنظر إليهم مرتبطين أشد رباط بمجتمع خاص وبيئة طبيعية خاصة ، وإلا كان موقف القاص – إذن – كموقف دارسى التشريح حين يعزل الحيوان الذى يجرى عليه التجربة فى معمله بعيداً عن بيئته .... "[١] .

وقد راعى الإمام السيوطى فى قصة مقامته ربط أحداثها بالبيئة ، لا سيَّما تحديده للبيئة المكانية التى دارت فيها الأحداث ، وذلك حين بدأ مقامته بقوله على لسان راويها : " مررتُ يوماً على حديقة خضرة نضرة أنيقة ، طلولها وديقة وأغصانها وريقة ذات ألوان وأفنان .... "[٢] .

وأفاض الإمام فى وصف المكان وكأنه يمهد لتفسير الدوافع النفسية للشخصيات وتطور الأحداث ، فالحديقة بهذا الوصف البديع هى المجال الطبيعى لمجتمع الزهور وما يمكن أن يدور فيه من أحداث .

أمَّا ما قد يباعد خطوة بين مقامة الرياحين وبين البناء الفنى للقصة فهو عدم تحديد البيئة الزمانية ، فلم يكف لذلك قول الراوى : " مررت يوماً على حديقة " ، بل ربما أسهمت كلمة " يوماً " فى عدم تحديد الزمن ، بينما – فى البناء القصصى – يكون القاص ملزماً بتحديد مكان الأحداث وزمان وقوعها ، ولا تخفى دلالة ، ذلك على جلاء الجو النفسى المسيطر على عناصر هذا البناء .

خامساً : الصراع :

من أهم عناصر البناء القصصى ، إذ لا سبيل إلى تأليف قصة من شخصيات متفقة فى ميولها وأفكارها وغاياتها ، فلابد من تصارع نوازع الشخصيات وتناقضها ، على ألا يضر هذا التناقض بضرورة تعاونها وتضامنها معاً ، حتى يبرز منطقها الحيوى وهذا أقوى معنى اجتماعى يميز القصة والمسرحية بين الأجناس الأدبية[٣] .

---

(١) " النقد الأدبى الحديث " د. محمد غنيمى هلال – ص ٥٢٣ .

(٢) " مقامات السيوطى " – ص ٤٣٢ .

(٣) " النقد الأدبى الحديث " – د. محمد غنيمى هلال – ص ٥٧٠ .

وقد اتفق النقاد على أنَّ أبسط صورة لبناء القصة تتمثَّل فى طرفى الصراع ، وهما : الهدف ، والنتيجة ، " فإذا كان " أ " يريد الزواج من " ب " رغم منافسة " جـ " ، وممانعة " د " ، فإنه إما أن ينجح وإما أن يفشل ، وأثناء طريقه إلى النهاية سيصادف حوادث كثيرة تقربه من النجاح أو الفشل ، وهذه الحوادث تصور خطًّا متسلسلاً فى ذهن القاص الذى يصورها مشهداً مشهداً حتى يصل إلى الخاتمة ... "[1] .

وقد تحققت معانى وأبعاد الصراع فى قصة مقامة الرياحين لاسيَّما طرفيه : الهدف ، والنتيجة ، فالمفاخرة بين الزهور المتخاصمة تهدف إلى محاولة كل منها القفز على عرش مملكة الزهور ، أما النتيجة : فإزالة الخلاف ، وإذعان الأطراف المتخاصمة ومبايعتها لزهرة " الفاغية " بعد أن حكَمَ القاضى لصالحها ، وبين الهدف والنتيجة ينمو الصراع مع نمو حركة الأحداث .

ولا أدلّ على معانى الصراع فى قصة المقامة مما جاء على لسان شخصياتها ، ومن ذلك قول " النرجس " يهاجم الورد :

" فاحفظ بالصمت حرمتك ، وإلا أكسر بقائم سيفى شوكتك " ، وقول " الريحان " : " يا " آس " : لأجرحنَّك جرحاً ماله من آس " ، وقول الراوى : " فقام " البان " ، وأبدى غاية الغضب وأبان ، وقال : لقد تعديت يا ياسمين طورك وأبعدت فى المدى غورك " ،وقول الراوى أيضاً : " فقام " النيلوفر " ، على ساق ، وحشد الجيوش وساق " ، إلى غير ذلك من معانى وألفاظ المخاصمة والصراع ، وهى أهم ما يميز القصة والمسرحية بين أجناس النثر الأدبى .

---

(١) " المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين للدكتور شكري محمد عياد – ص ١٢٨ .

المبحث الثانى

الأسلوب القصصى وآلية سرد المقامة

اللغة هى الأداة التى يتشكل منها البناء القصصى ، " غير أن الفنون الأدبية ليست جميعها سواء أمام مستويات اللغة فى ألفاظها ، ومبانيها ، ومعانيها ، وتشكيلها الصوتى والأسلوبى ، ولاشك أن كل فن من فنون الإبداع يحتاج إلى طاقات لغوية خاصة ..." [١].

والسرد الفنى " هو نقل الفكرة إلى صورة لغوية "[٢] ، وله لغة تغاير السرد الخبرى ، إذ فارق كبير بين أن يعبر عن الفكرة أو الحادثة كاتب صحفى فى نطاقها الخبرى ، وأن يعبر عنها أديب مبدع بأسلوب قصصى بارع .

والنقد الحديث على أن طرق سرد القصة كثيرة يصعب تحديدها ، فحُرِّية المؤلف فى هذا الجنس الأدبى لا تحدها القواعد كل التحديد ، وعبقريته هى التى تعينه على الإفادة من الطريقة التى يختارها[٣] .

وأكثر طرق السرد القصصى تداولاً ثلاث طرق ، أولاها : " الطريقة الملحمية " ، وتعتمد على سرد الأحداث سرداً مباشراً ، يقترب فيه القاص من كاتب السيرة التاريخية .

وثانيها : طريقة السرد الذاتى ، ويتحدث فيها الكاتب عن نفسه ، وثالثها : طريقة الوثائق ، ويعتمد فيها صاحبها على الخطابات والرسائل واليوميات[٤] .

---

(١) " نظرية الرواية " – د. عبد الملك مرتاض – ص ٢٩٩ – ط مجلة عالم المعرفة عدد ٢٤٠ المجلس الوطنى للثقافة والفنون بالكويت .

(٢) المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين للدكتور شكري محمد عياد – ١٢٦ .

(٣) ينظر : " النقد الأدبى الحديث " – د. محمد غنيمى هلال – ص ٥١٤ .

(٤) ينظر : " المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين للدكتور شكري محمد عياد " ص ١٢٦ : ١٢٧ .

غير أنه " لكاتب القصة فى طريقة عرض شخصياته أن يصورهم من خلال حركتهم ، وموقفهم ، وحديث بعضهم إلى بعض فى " الحوار " أو فى حديث كل منهم عن نفسه ، والحوار مشترك بين القصة والمسرحية ، وإن كانت المسرحية لا تعتمد على سواه .... "[١] .

وفى ضوء هذه الطرق الثلاث للسرد الفنى جاءت مقامة الرياحين ذات طابع مسرحى لما اختار لها الإمام من أسلوب الحوار بين الشخصيات ، إلا أنه مال بها ناحية الحكى والسرد القصصى البحت حين توسع فى الأحاديث الذاتية للشخصيات .

ولعل أسلوب الحوار وإن جاء صورة تالية للسرد فى عملية الإبداعالقصصى إلا أن الإمام السيوطى كان موفقاً فى اختياره أسلوباً فنياً لقصة مقامته ، فالحوار " هو المروم فى خلق التعددية عبر تقنية الصراع والمقابلة "[٢] ، وهو الخاصية الأسلوبية القادرة على بث الحياة فى الشخصيات التى تتحرك ، وتسكن ، وتصارع ، وكأنها كائن حى ، لاسيَّما وأن شخصيات المقامة مجموعة من الزهور المتخاصمة .

وقد شغل الحوار حيزاً واسعاً من البناء القصصى لمقامة الرياحين إن فى الحدث الرئيس ، وإن فى الأحداث المتفاعلة ، وبدا الحوار هو الأسلوب الأمثل لكشف الأصوات المختلفة عند تأزم الصراع بين الزهور .

وأكثر ما يدل على قصد الإمام لاختيار أسلوب الحوار فى طريقة سرد مقامته قول راويها عن الشخصيات المتصارعة : " فلما أبدى كل ما لديْه ، وقال وردَّ عليه : اتفق رأى الناظرين على أن يجعلوا بينهم حكماً ..... " .

ومن أمثلة الحوار فى قصة مقامة الرياحين ما دار بين ذلك الحَكَم ، والزهور المتخاصمة ، يقول راوى المقامة :

---

(١) " النقد الأدبى الحديث " – د. محمد غنيمى هلال – ص ٥١٥ .

(٢) " اللغة وتقنيات البناء الفني " – د. كمال سعد خليفة – ص ١١٣.

" فلما مثلوا بين يديه ، ووقعت عيونهم عليه ، قالوا يا فريد الأرض ، وعالم البسيطة ما بين طولها والعرض ، إنا أخصام بغى بعضنا على بعض ... فقال : أيها الأزهار : إنى لا أقبل الرَّشا ، ولا أطوى على الغلِّ الحشا ، ولا أحكم إلا بما ثبت فى السُّنة ، ولا أسلك إلا طريقاً موصلاً للجنة ...

فلما قصَّ كل منهم قوله ، وأبدى هينَهُ وهوله ، قال : ليس أحد منكم مستحقاً عندى للملك ...

فقالوا : أيها الإمام : أوضح لنا هذا الكلام ، وارو ما ورد عن النبى – عليه الصلاة والسلام ،

فقال : روى الطبرانى ، والبيهقى ، وغيرهما بالأسانيد العالية من حديث بُرَيْدَة عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " سيد الرياحين فى الدنيا والآخرة الفاغية .... فلما سمعت الرياحين الأحاديث أطرقوا رءوسهم خاشعين ،

وقالوا : لقد كنا فى غفلة عن هذا إنا كنَّا ظالمين .. "[1].

وقد يتفوق الأسلوب الحوارى فى القصة على غيره لما يضيفه على الأحداث من حيوية ، ولما يمنحه للقارئ من متعة ، ولأن معه تتصل شخصيات القصة بعضها ببعض اتصالاً صريحاً ومباشراً .

وقد اتسم الحوار فى قصة المقامة بالانبساط فى كثير من المواقف ، ومال به الإمام إلى التمديد اللغوى وإطالة العبارة ، ولعل ذلك من دواعى الفن والإبداع حين يُراد جلاء خفايا الشخصيات المتناظرة .

لكن النصفة تقتضى القول : إن الإمام أطال الحوار فى بعض المواضع ، وأسرف فى الأخذ والرد بما تحوَّل معه الموقف الحوارى كثيراً إلى جمل مستطردة .

---

(١) " مقامات السيوطى " – ص ٤٧٠ .

كما أنه لجأ كثيراً إلى استعراض ما لديه من مذخور لغوى وقوة بيانية والتزام للبديع قد يبدو معه الأسلوب – أحياناً – مصنوعاً ومتكلفاً ، وتكرر ذلك كثيراً فى نص المقامة بما لا يعوذنا إلى تمثيل .

وبعيداً عن أسلوب الصياغة – الذى لا يمثل هذه المقامة أو فن المقامات العربية فحسب وإنما يمثل الأدب فى عصر كتابتها – نرى قصة مقامة الرياحين وقد التزم صاحبها تصوير البيئة ، ورسم الشخصيات ، وتمثيل الفكرة بطريقة واقعية حقيقية عبر سلسلة من الأحداث المثيرة التى نشأت عن محاولة كل زهرة إثبات أحقيتها فى السيطرة على عرش مملكة الزهور .

ولاشك أن توالى الأحداث قد أسهم فى حصول الأثر النفسى ومتعة القارئ وهى غاية مرجوة لدى القاص ، وإن كانت شخصيات القصة مجموعة من الزهور ، غير أن كثيراً من نقاد العصر الحديث يرى أن هذا النوع القصصى ينخفض عن مستوى غيره من أنواع القصص التى تكون البطولة فيها للشخصية الإنسانية[1] .

---

(١) يأتى فى مقدمة هؤلاء النقاد الدكتور / محمد يوسف نجم ، ينظر : " فن القصة " – ص ٢٤ " مرجع سابق " .

خاتـــمة

الحمد لله خلق الأرض والسماوات ، بفضله تُقضى الحاجات ، وبنعمته تتم الصالحات وصلاة وسلاماً على سيد السادات ، وعلى آله وصحبه المهديين الهداة .

وبعد ،،،،

ها قد انتهت هذه الدارسة فى " مقامة الرياحين " للإمام السيوطى ، تحلـــيلاً للنص ، وتأصيلاً لعلاقته بفن القصة ، ولم يتبق سوى الختام ، وفيه يجدر ذكـــر مـــا تمخض عنه البحث من نتائج .

- تأتى هذه الدراسة فى إطار التعمق فى جذور حضارتنا وتتبع نقطة الارتكاز ومبعث الانطلاق إلى الحاضر ، والإفادة من التراث الأدبى الذى تركه الأســـلاف صـــانعوا الذوق العربى .

- وكذلك تأتى هذه الدراسة فى إطار الرد على أصحاب الأحقاد والمولعين بالتغريب الذين يحاولون طمس معالم التراث العربى والتقليل من قيمته .

- تؤكد هذه الدراسة أنَّ فن المقامات العربية هو الأب الشرعى لفن القصة فضلاً عن كونه ضرب من الفن كان ذا سلطان عظيم على الأذواق الأدبية أمداً بعيداً ، وقـــد كنت أرى قبل إعداد هذه الدراسة أن الشطر الأول لهذا القول يحتـــاج إلى تقـــصٍّ كبير .

- كما تؤكد هذه الدراسة فى نص أدبى كتبه صاحبه على لسان النبات أنَّ شـــرف الموضوعات وتفاهتها قضية لا مكان لها فى الأدب الصحيح إلا مـــن بـــاب الأهـــم والأَوْلَى ، وأنَّ كل موضوع يمكن الكتابة فيه حين يُتاح للتجربة أديب مبدع يسكب على الورق من ألَق فكره ، ووهج وجدانه ، وبلاغة تعبيره ، فينتج فناً بديعاً فى أىِّ لون من الأدب .

- بدا الإمام السيوطى فى مقاماته كاتباً بليغاً ، وأديباً بارعاً ذا قدرة على أفانين القول تنويعاً وتلويناً ، لاسيَّما " مقامة الرياحين " التى توافت فيها جميـــع عناصـــر البنـــاء القصصي حين شخَّص فيها الزهور أناساً تتحاور ، وتنبض بالحركة والحياة فى صورة فنية بديعة تدل على رقة طبعه وأدبيته .

أما ما جاء فى المقامة من أخبار ومعلومات طبية فله دلالته على رحابة فكره الموسوعى وثقافته ، وكذلك ما ضمَّته من شواهد نصِّيَّة من القرآن والسنة تتلاءم مع علمه الإسلامى وإمامته ، فضلاً عمَّا يُعرف عن الإمام من فضل فى العلم والتـــأليف والتصنيف .

والله عزَّ وجل أسأل أن ينفع بهذه الدراسة وما خلُصت إليه ، وقد تعلَّمـــت أن جهد الدارس لا يُقاس فقط بما يصل إليه من نتائج وإنما بصحة توجهه ، وســـلامة منهجه .

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[1]

---

(١) من الآية ٨٨ سورة " هود ".

فهرس المصادر والمراجع

* القرآن الكريم (كتاب الله عز وجل).

أولاً :الكتب المطبوعة :

☜الأدب العربى الحديث – د.محمد عبد المنعم خفاجى – ط. مكتبة الكليات الأزهرية – دون تاريخ .

☜أسرار البلاغة – الإمام عبد القاهر الجر جانى – شرح د. محمد عبد المنعم خفاجى – ط مكتبة الإيمان – دون تاريخ .

☜الأسلوبية والأسلوب – د .عبد السلام المسدى – الدار العربية للكتاب تونس – الثالثة – دون تاريخ .

☜أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن – محمد بن الأمين بن محمد المختار الشنقيطى – ط دار الفكر للطباعة والنشر – ١٤١٥ه – ١٩٩٥م .

☜الإشارات والتنبيهات – لمحمد بن على الجرجانى – تح د. عبد القادر حسين ص ٢٥٧ – ط دار نهضة مصر للطبع والنشر .

☜الأعلام – خير الدين الزركلى – ط دار العلم للملايين – الخامسة عشرة – دون تاريخ .

☜إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور – محمد بن عثمان بن فوزى – تح بهيج الشاذلى – ط.منشورات معهد الدراسات الأفريقية – الأولى – ١٩٩٦م .

☜بناء القصيدة العربية الحديثة – د.عشري علي زايد – ط مكتبة ابن سينا القاهرة – الرابعة ٢٠٠٢م .

☜بغية الإيضاح في تلخيص المفتاح – عبد المتعال الصعيدي – ط مكتبة الآداب دون تاريخ .

☜تاريخ الأدب العباسي قضايا وفنون – د. الريدي عبد الحفيظ – ط مركز كتاب كلية البنات بأسيوط ٢٠١٢ .

☜تاريخ الخلفاء – جلال الدين السيوطي – تح: حمدي الدمرداش – ط نزار الباز – الأولى ١٤٢٥ ه- ٢٠٠٤م .

☜جلال الدين السيوطي وفن المقامات – د. السيد علي حسن – ط مركز كتاب كلية الآداب بسوهاج – دون تاريخ .

☜حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة – جلال الدين السيوطي – تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم – دار إحياء الكتب العربية – الأولى ١٣٨٧ه – ١٩٨٧م.

☜حلبة الكميت في الأدب والنوادر – شمس الدين النواجي – ط مصر ١٩١٦م.

☜دائرة المعارف الإسلامية – إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشناوي وعبد الحميد يونس – ط أفغانستان ١٩٣٦م .

☜دراسات في المعاني والبيان والبديع – د.عبد الفتاح عثمان – ط مكتبة الشباب القاهرة ١٩٨٣م .

☜الصبغ البديعي في اللغة العربية – د.أحمد إبراهيم موسى – ط دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٨ه – ١٩٦٩م .

☜ضعيف الجامع الصغير – جلال الدين السيوطي – تح: محمد ناصر الدين الألباني – ط المكتب الإسلامي- الثانية ١٩٧٩م .

☜الضوء اللامع لأهل القرن التاسع – شمس الدين السخاوي ط دار الجيل بيروت دون تاريخ.

☜عارضة الأحوزي في شرح صحيح الترمذي – ابن عربي – ط دار الكتب العلمية – الأولى ١٤١٨ ه – ١٩٩٧م .

☜علوم البلاغة – أحمد مصطفى المراغي – ط دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٤ه – ١٩٩٣م .

☜فتح الباري بشرح صحيح البخاري – أحمد بن علي العسقلاني – ط دار المعرفة – بيروت ١٣٧٩ه .

☜فن القصة – د .محمد يوسف نجم – ط دار صادر – بيروت دون تاريخ .

☜فن المقامات بين المشرق والمغرب – د.يوسف نور عوض – ط دار القلم بيروت – الأولى ١٩٧٩م .

☜فوات الوفيات – محمد بن شاكر الكتبي – تح : د. إحسان عباس – ط دار صادر – بيروت ١٩٧٣م .

☜قطر الندى وبل الصدي – ابن هشام – تح : محمد محي الدين الألباني – ط الكتب الإسلامي – الثانية ١٩٧٩م .

☜الكتابة والوجود – عبد القادر الشاوي – طأفريقيا والشرق – المغرب ٢٠٠٠م

☜كتب وشخصيات – د.سيد قطب ط دار الشروق ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

☜اللآلئ المصنوعة – جلال الدين السيوطي – ط دار المعرفة – الثانية ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م .

☜لسان العرب – محمد بن مكرم بن منظور – ط دار صادر بيروت دون تاريخ .

☜اللغة وتقنيات البناء الفني – د. كمال سعد خليفة – ط جامعة أم القرى ١٤٣٠هـ.

☜المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ضياء الدين بن الأثير – ط دار نهضة مصر – القاهرة ١٩٧٣ م .

☜المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين – د.شكري محمد عياد – ط عالم المعرفة – الكويت ١٩٩٣م .

☜معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م – كامل سلمان الجبوري ط دار الكتب العلمية – الأولى ٢٠٠٣ – ١٤٢٤ م .

☜المعرب – الجواليقي – ط دار الكتب العلمية – الثانية ١٣٨٩هـ – ١٩٦٩م .

☜مفردات ألفاظ القرآن – الأصفهاني – تح : صفوان عدنان داوودي – ط دار القلم دمشق – الرابعة ١٤٣٠هـ –٢٠٠٩ م.

☜المقامة – د.شوقي ضيف – ط دار المعارف – الثالثة١٩٧٣م.

☜المقامات الأدبية – أبو محمد الحريري –ط البابي الحلبي بمصر ١٩٥٠ م.

☜مقامات السيوطي – تح : د. سمير الدروبي – ط مؤسسة الرسالة – الأولى ١٤٠٩ه – ١٩٨٩م .

☜الموضوعات – ابن الجوزي – ط الكتبة السلفية بالمدينة المنورة – الأولى ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م .

☜نظرية الرواية –د. عبد الملك مرتاض – ط مجلة عالم المعرفة – عدد المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت .

☜النقد الأدبي الحديث – د.محمد غنيمي هلال – ط نهضة مصر ٢٠٠٤م .

☜وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – ابن خلكان – تح : د. إحسان عباس ط دار صادر – بيروت ١٩٧٨م .

ثانياً :الدواوين الشعرية

☜ديوان ابن الرومي – ط دار صادر بيروت – دون تاريخ .

☜ديوان زهير بن أبي سلمى – ط دار الفكر – بيروت ١٩٩٥م .

☜ديوان ابن الوردي – تح : عبد الحميد هنداوي – ط الأولى ١٤٢٧ه .

☜ديوان لبيد بن أبي ربيعة العامري – ط دار صادر – بيروت دون تاريخ .

ثالثاً :شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) ، مواقع :

☜ WWW. Almasalik.com)

☜ https://ar.wikipedia.org)

☜ www.almaany.com

☜ www.mekshat.com